م. يحيى محمد العُمري

اختلاف قلب

رواية

رواية

اختطاف قلب

م. يحيى محمد العمري

جميع الحقوق محفوظة لدى المؤلف ©

المؤلف: م. يحيى محمد سعد العُمري

اسم الكتاب: اختطاف قلب

نوع الكتاب: رواية

الناشر: نقش للنشر

https://www.facebook.com/naqsh.pub

إيميل: naqsh.pub1@gmail.com

تصميم الغلاف: نقش للنشر

مراجعة وتنقيح: عبدالله الشميري

الطبعة الأولى: ٢٠١٨م

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية بصنعاء: ١٠٤٩ للعام ٢٠١٨م

يسمح بنشر أجزاء هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني فقط مع تضمين الهاشتاقين: #اختطاف_قلب و #يحيى_العمري

ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف.

للتواصل مع المؤلف:

إيميل : alomri684@gmail.com

فيس بوك: www.facebook.com/Yahyaalomri

إخلاء مسؤولية:

الآراء المنشورة بأسماء كاتبيها لا تعبر بالضرورة عن رأي دار نقش، ولا تتحمل دار نقش أي مسؤولية مترتبة على محتوى ما يتم نشره.

الإهـداء

إليكِ أنتِ أهدي هذا الكتاب.

إلى مَن يريد الدخول إلى عالم الحب.

إليكم أُهدي هذه الرواية والتي لمْ تخرج إلى النور إلا من أجلكم.

كتبتُها من قلبي، وأهديتُها لكم.

يحيى العمري

عندما كنتُ في المدرسة الابتدائية لمْ أكُن أعلمُ ماذا يعني الحب، لقد كان يُشكّل لغزاً مُبهماً بالنسبة لي. كنتُ أشاهدُ طلاباً من المدرسة المجاورة يدرسون في المرحلة المتوسّطة ينظرونَ إلى الفتياتِ اللواتي يدرسنَ في مثل مستواهم الدراسي، ولا أعرف ما هو المهم في ذلك! وماذا يستفيدون من ذلك! أنظُرُ نظرة تعجّب واستغراب: ماذا يعملون؟! ولماذا يعملون هكذا؟! ولماذا يضايقون زميلاتهم في الدراسة؟!.. كنتُ أتساءلُ دائماً: ما هو السرُّ وراء ذلك؟! وما هو الدافع لفعل ذلك؟!

كبرتُ قليلاً وبدأتُ في فهم بعض الأمور التي كانتْ محلّ استغراب لديّ منذ سنوات مضتْ بعد أن سألتُ البعض وشاهدتُ البعض الآخر على أرض الواقع، وحينها بدأتُ أتوسّعُ في الفهم. سألتُ زميلاً في الصفّ الذي أدرُسُ فيه:

- لماذا يُضايق الطلابُ الطالباتِ بهذا الشكل؟! ألا يخجلونَ قليلاً؟!

وبينما أنا أسأله استوقفني بضحكة على وجهه، وقال لي:

- هذا يدلّ على إعجاب.

قلتُ له:

- ماذا تقصد بـ(إعجاب)؟!

قال لي:

- الإعجاب هو أن طرفاً – سواء كان الفتاة أو الشاب – يُعجب بالآخر.

قلتُ له:

- ولنفرض – وحسب ما قلت – أن أيّ طرف منهما لمْ يُعجب بالآخر؟

قال لي:

- وضّح أكثر..

قلتُ له:

- مثلاً: أن يكون الشاب مُعجباً بالفتاة، بينما الفتاة غير معجبة بالشاب، كيف يكون الموقف بين الطرفين؟

قال لي:

- إن استطاعَ الشابُ إغراء الفتاة للإعجاب به فهذا يدلّ على شطارته، والعكس.

قلتُ له:

- أيستطيع فعل ذلك؟!

قال لي:

- نعم.

قلتُ له:

- كيف؟!

قال لي:

- هناك أشياء كثيرة لفعلها من الشاب لتتعلّق الفتاة به، وليس هناك مجال لذكرها.

قلتُ له:

- أهمّ الأشياء في نظرك لتتعلّق الفتاة بأيّ شخص؟

قال لي:

- أوّلها الاهتمام.. اهتمّ بها.

قلتُ له:

- كيف؟

قال لي:

- تسأل عنها عندما تغيب، تساندها إن احتاجت لأيّ شيء، تقِفُ بجانبها في الظروف الصعبة التي قد تمرّ بها، ألا تنظر لأحد سواها، أن تراها كلّ شيء.

قلتُ له:

- وما الذي يضمن لك أن الفتاة ستغرم بكَ بمجرّد أن تقوم بتلك الأشياء؟

قال لي:

- جرّب وسترى.

قلتُ له:

- ولماذا أنت واثق هكذا؟!

قال لي:

- أنا واثق من هذا الأمر ومتأكّد تماماً؛ لأنني شاهدتُ ذلك وجرّبتُهُ بنفسي؛ فأنا لا أكلّمك الآن نقلاً عن شخص قال لي ذلك، بل عن تجربة شخصية لي.

بادرتُهُ بسؤال:

- ألا تُحِب؟

قال لي:

- لمْ أجِدْ إلى اليوم.

قلتُ له:

- ماذا تقصد بأنك لمْ تجد، أتقصد (الفتاة) أم (الحب)؟

قال لي:

- الحب، أمّا الفتيات فكثيرات.

قلتُ له:

- كيف؟!

قال لي:

- لمْ يأتِنِي الحب بعد.

قلتُ له:

- كيف؟!

قال لي:

- قد تُعجب بفتاة ولكن لا تحبها. تُعجب بحيائها، بعفويتها، بشخصيّتها، بذكائها.

قلتُ له:

- كيف تعرِفُ ذلك؟ أقصد: إذا أتاك الحب من عدمه.

قال لي:

- عندما يأتيكَ الحب تحب كلّ شيء، ترى العالم جميلاً حتى وإن كان كئيباً، تراه ناصع البياض بمجرّد أنك تحب، تحب الجميع، تنظر للحياة بنظرة مختلفة: نظرة تفاؤل، نظرة حب، نظرة سعادة.

قلتُ له:

- في أيّ وقت يأتيك؟

قال لي:

- لا أعرف؟

قلتُ له:

- كيف لا تعرف وأنت تعرفه وتعرف صفاته وعلاماته؟!

قال لي:

- نعم، ولكنّي لا أعرف متى يأتيني. قد يأتيني في أيّ وقت، قد يأتيني وأنا في أشدّ حالاتي النفسيّة غضباً، قد يأتيني وأنا في مدينة أخرى أو حتى في دولة أخرى، قد يأتيني وأنا مارٌّ في الشارع.

- نعم!

قلتُ له ضاحكاً ذلك، ولكني لم أكن أعرف ماذا سيحلّ بي عندما يأتيني الذي ما زلتُ لمْ أعترفْ به بعد.

وسألتُهُ حينها:

- وما هو الحب؟

قال لي:

- ألمْ تعرف بعد؟!

قلتُ له:

- أعرف ماذا؟

قال لي:

- الحب.

قلتُ له:

- لو كنتُ أعرفُ لما سألتُك.

وأضفتُ:

- لقد سمعتُ هذه الكلمة من قبل، ولكني لمْ أفهم ماذا تعني، وما هو المغزى منها.

قال لي:

- هذا ما يُسمّى (الحب)، كلّ ما تشاهده هو ما يعبّر عن الحب أو الإعجاب، كلّ شخص من الذي تشاهدهم يومياً يحبون أو معجبون.

قلتُ له:

- إلى هذا الحد؟!

قال لي:

- وأكثر من ذلك.

قلتُ له:

- فسّر لي ذلك؛ فربما سأجدُهُ يوماً ما.

تنهّد تنهيدة طويلة وكأنه يعرف ذلك الشعور الذي يشعُرُ به من لمْ يزلْ في مستهلّ الحب، ثم قال:

- الحب شيء جميل، وشعور عميق، لا تبحث عنه أنت، بل هو مَن يبحثُ عنك ويطرقُ قلبك بدون استئذان.

قلتُ له:

- هذا مستحيل!

قال لي:

- وما هو المستحيل؟!

قلتُ له:

- ما قلتَ عنه أنت بأن الحب يأتيكَ من دون أن تبحثَ عنه.

قال لي:

- نعم، وأجزِمُ لك بذلك، وستعرف ذلك عندما يأتيك. لا تستطيع مقاومته، وستذكر كلامي هذا، وتقول عندها: كان لديكَ حق فيما قلت.

قلتُ له – باستغراب شديد، وضحكة هزليّة على وجهي، وبنوع من الاستهزاء –:

- أنا؟!

قال لي:

- نعم أنت.

قلتُ له:

- مستحيل!

قال لي:

- لا شيء مستحيل مع الحـ...

قاطعتُهُ وقلتُ له:

- سيتوقّف عندي كلّ هذا الهراء الذي تتحدّث عنه.

ضحِكَ، ومدّ نظره إلى الأمام، ثم قال:

- أنت الآن تتحدّث عن شيء لمْ يأتِك بعد، ولمْ تشعر به يوماً، وإن أتاكَ يوماً أُقسم لك بأنك لن تستطيع الوقوف في طريقه أبداً، وستتذكّر كلّ كلماتي هذه، وتقول لي: لقد كنتَ محقاً، لقد كنتَ صادقاً فيما قلتَ لي، أتمنى لو أنني عرفتُ المزيد عن الحب حتى لا أقع فيه منذ البداية، وكي أتجنّب ما لَحِق بي في نهاية الأمر بسببه.

وصلتُ إلى المرحلة الثانوية حيث دخلتُ مرحلة جديدة من المعرفة البسيطة عمّا يُسمّى (الحب). ذلك الشيء أو الشعور الذي أجهله كثيراً رغم معرفتي البسيطة عنه.

بدأتُ أشاهد زملاء لمْ يكونوا كالزملاء السابقين، بمعنى أن مَن يصِل إلى المرحلة الثانوية يصبحُ عاقلاً ولو قليلاً، ولمْ يعُد كما كان في المراحل الدراسيّة السابقة، ولكنني تفاجأتُ من تصرّفاتهم، رغم أن مدرستنا تقع في الريف اليمني، ومجتمعنا مجتمع محافظ إلى أبعد حد ولا يسمح بمثل هكذا تصرّفات، شيء غير لائق أن تفعله: هذا الذي يُسمّى (الحب).

عند الخروج إلى الاستراحة في الساعة العاشرة والنصف، كان شغلي الشاغل أن أبحثَ وأشاهدَ وأرى ما الذي يحدث. لمْ أكن أتناولُ وجبه الفطور التي كانت تضعها لي أمي في الشنطة أو الحقيبة من أجل تناولها في ذلك الوقت: وقت الاستراحة، كنتُ أعودُ بها يومياً إلى البيت. مضتْ أيام وشهور عديدة على اطّلاعي ومشاهدتي لبعض الأمور. وفي ذات يوم شاهدتُ طالباً وطالبة زملاء في صف دراسيّ واحد - أثناء خروجنا من الفصل للاستراحة الصباحية - ينظُرُ كلّ واحدٍ منهما إلى الآخر بابتسامات ونظرات تلفتُ انتباه أيّ شخصٍ آخر شاهدهما ذلك اليوم. لمْ أرفع ناظري عنهما، ظللتُ أشاهدهما من وقت لآخر، ثم ذهب كلّ شخص في طريقه: ذهب الطالب إلى حيث استراحة الطلاب، وذهبت الطالبة إلى

الاستراحة المخصّصة للفتيات، حيث كان في المدرسة مكان أو استراحة مخصّصة للطلاب، ومكان مخصّص للطالبات، كلّ مكان منهما مفصول عن الآخر. بعد افتراقهما لمْ تفترق عيونهما، وظلّ كلٌّ منهما يسترِقُ النظرَ إلى الآخر.. ظلّ ينظُرُ إليها من مكانه الذي ذهبَ إليه ليتناولَ وجبة الإفطار، وظلّت تفعل هي كذلك، كان منظراً غريباً ومألوفاً: غريباً لأنها المرة الأولى التي يحدثُ فيها أمامي شيء كهذا، ومشهداً مألوفاً لأني سمعتُ زميلاً لي يتحدّث عن ذلك ولكنني لمْ أصدّقه، استمررتُ في متابعتهما وملاحظتهما حتى انقضى وقت الاستراحة، وتساءلتُ في نفسي: أيُعقل أن الحب يفعل كلّ هذا؟! إنه الجنون بحدّ ذاته. كان كلٌّ منهما يرمقُ الآخر بنظرات حب وابتسامة عريضة على وجهه، لا يعرف أيّ سعادة داخل كلّ منهما إلا هما، ظلت النظرات والابتسامات تلاحق بعضهما حتى الانتهاء من وقت الاستراحة ومن ثمّ العودة إلى قاعات الدراسة.

بعد تخرّجي من الثانوية العامة بدأتُ أفكّرُ بالجامعة، وماذا سأدرس، وماذا سيكون تخصّصي الجامعي. بحثتُ لأختارَ التخصّص المناسب لي. كانتْ لديّ سنة كافية للبحث والاطّلاع على أفضل تخصّص يمكن أن أدرسه، كان لديّ خياران: أولهما دراسة الطب، والآخر دراسة الحاسوب. اخترتُ حينها الخيار الأخير المتمثّل بالحاسوب. اخترتُ تخصّصي الجامعي، وبدأتُ أبحثُ عنه. في تلك السنة، ومن قبلها أيضاً في مرحلة الدراسة كنتُ أشاهد المسلسلات العربية، وكانت في بعض حلقاتها مشاهد للحياة الجامعية: علاقة الطلاب ببعضهم البعض، وحالة العشق والغرام التي تنشأ بينهم، وكيف يبدأ الحب: أوّله نظرة، ثم إعجاب، ثم محبة، ثم كلام، ثم تعلّق..

كما صوّروه في المسلسلات والأفلام العربية. هكذا الحب بالنسبة للطلاب في الجامعة أو حتى في غيرها. كنتُ أشاهده وأضحكُ كثيراً على هكذا مشهد كجزء من حلقة، ليس لأني أعرف أو أجهل الحب، ولكني لمْ أكن أعرفهُ بعد، ولمْ أشعر به، ولمْ يحِن وقت الحب لديّ، ومن وجهة نظري – وكما كنتُ أقول – ليس هذا وقت الحب، والحقيقة هي أني لمْ أجد من

يستحق ذلك. كانوا في نظري يشوّهون الحب رغم أني لمْ أجرّبه أو أحب بعد، ولكن من خلال متابعتي لتلك المسلسلات شعرتُ بأنهم يحرّفونَ الحب خارج مساره.

****

في مجتمعنا اليمني ليس شرطاً أن تتزوج بمَن تحب، ولكن الشرط هو أن تتزوج مهما كان الأمر. أغلب من يتزوجون - وليس جميعهم - لا يعرفون ما هو الحب، بمجرّد أن يكون لدى الأشقاء في العائلة أبناء يقوم كلّ واحد من هؤلاء الأشقاء بتزويج أبناء شقيقه؛ كي يظلّ زواج كلّ ابن من أبنائهم ضمن نطاق العائلة، وهنا تكمُنُ المصيبة: لا يتركونَ لهم حقّ الاختيار أحياناً، وأحياناً أخرى يُفرض عليهم الأمر فرضاً من قِبَل الأمّ والأب، بمجرّد أن البنت أو الولد يعجبهما يفرضان على الطرف الآخر - ابنهم أو ابنتهم - الزواج بدون وجه حق، وكأن والده هو من سيتزوّج البنت، أو أن أمّه هي من ستتزوّج الولد، بدون أيّ احترام لقرارات الابن والبنت، حتى وإن كان لا يريد أحدهما الآخر فيجب تزويجه رغماً عنه، وبأيّ صورة كانت، ومهما كان الأمر. وبسبب هذه الظاهرة تظهرُ الكثير من المشاكل بين العائلة الواحدة إذا حدث خطأ من أيّ طرف كان.. إذْ تتفكّك الأُسَر والضحية الأطفال.

يحرِمون شبابهم من اختيار شريكة أو شريك الحياة، ليس لشيء وإنما كما تُسمّى في مجتمعنا: (عادات وتقاليد). والعجيب أن هناك بعضاً من المجتمعات داخل مجتمعنا يرفضون تزويج بناتهم إلى خارج حدودهم ويقولون: عادات وتقاليد، وكذلك يمنعون أبناءهم من الزواج من خارج حدودهم، والتبرير الوحيد لهم هو العادات والتقاليد. تبّاً للعادات والتقاليد إن كانت لا تنصِف من يُحِب.

إنه القرار الخاطئ الذي يتّخذه الآباء بحقّ أبنائهم بعدم ترك الخيار لهم لتحديد مستقبلهم الأُسَري أو العائلي، لا أحد غيرهم سيتضرّر من هذا، وحدهم من يتأذّون، ليس للحب مكان في مثل هكذا أمور؛ فالقرار هو بيد الأم أو الأب، لا يستطيع الولد أن يقول بأنه يحب

فلانة، كما لا تستطيع البنت أن تقول بأنها تحب فلاناً؛ فالقرار بيد الأم والأب وما الابن والبنت إلا مطيعان.

عندما تتزوج فتاة بشخص لا تحبه، ليس لا تحبه بالمعنى الصحيح ولكنها تحب شاباً آخر، شخصاً ربما أعطاها أو رأتْ فيه أشياء لا يستطيع الطرف الآخر تحقيقها لها- هنا تكمن الكارثة، سواء كانت عليها أو على الشخص الذي سيتزوجها، والعكس صحيح. مجتمعنا يقتلُ الحب، مجتمعنا ينتحِر الحب عنده قهراً، لا يعطيه مساحة، لا يعطيه حقه، ينتحِرُ الحب عندما يمنع قلبَيْن من التلاقي رغم الحب الكبير الذي بينهما، والمشاعر التي يحملها كلّ شخص للآخر.

****

دخلتُ الجامعة بعد سنة من المرحلة الثانوية. كانت أوّل سنة جميلة ومُمِلّة في نفس الوقت: جميلة لأنها أوّل سنة دراسيّة لي في الجامعة، ومُمِلّة لأنني لمْ أكُن أعرِفُ أصدقاء أقضي معهم وقت الاستراحة ما بين المحاضرات. كنتُ الوحيد الذي لمْ يكن لديه أصدقاء في البداية، جميع الزملاء الآخرين كان لديهم الكثير من أقاربهم يدرسون في نفس التخصّص، والبعض الآخر لديهم أصدقاء من نفس القرية أو المدينة أو من جيرانهم، بينما أنا الوحيد؛ لأني الوحيد الذي درستُ تخصّصاً مختلفاً عن الآخرين؛ فأغلب من عرفتُهُم درسوا تخصصات طبية، فيما بعد صادفتُ زملاء وزميلات وأصبحنا أصدقاء إلى اليوم. كلّيّتنا عبارة عن ثلاثة طوابق، تتوزّع قاعاتُ الدراسة في كلّ طابق، إضافة إلى المعامل والتي توجد فيها العديد من الكمبيوترات للتعلّم. أمام بابها الرئيسي مساحة – وللأسف - ليست خضراء، لا أعرف لماذا لمْ يتم حراثتها وزراعتها لتبدو جميلة أمام الكليّة! كانت على شكل دائري تحيطها مجموعة من المقاعد المخصّصة للجلوس، ربما هكذا، رغم أني لا أعدّها مقاعد ولكنها تفي بالغرض.

كانت السنة الأولى لا بأس بها، رغم أن مادة من المواد المقرّرة كانت تمثّل عائقاً رئيساً لي وهي مادّة الرياضيات، والتي لها قصّة غريبة: فرغم أنها أكثر المواد مذاكرة واجتهاداً وتعباً وسهراً،

ولكن في النهاية لا فائدة. لا أعرف لماذا ما زلتُ إلى اليوم لمْ أفهم الرياضيات! أهو مني أم من الرياضيات التي ما إن يسمع أحدٌ باسمها حتى يغطّي على أذنيه جيّداً حتى لا يسمعها مرة أخرى؟! كنتُ أتفاجأُ كثيراً عندما أُشاهدُ درجات بعض الزملاء في مادة الرياضيات وهم قد أحرزوا العلامة الكاملة أي: ١٠٠٪، أستغربُ كثيراً، وأتساءلُ: كيف يفعلون؟! وهل ذاكروا أكثر مني أمْ ماذا؟! رغم أني لا أعتقد ذلك.

سأُفشي لكم سراً:

أقسِمُ أنني كنتُ أذاكرُ أكثرَ منهم، ولكن لا أعرف لماذا كانت تعاندني هذه المادّة بالذات هكذا!

بعد شهرين من بداية الدراسة بدأتُ بمعرفة بعض الأشخاص، وبدأتُ أندمِجُ شيئاً فشيئاً في الحياة الجامعية. أكملنا الترم الأوّل وبدأنا بالترم الثاني. كان كلّ شيء يمشي على أكمل وجه وفي أفضل حال.

****

لا يوجد حب صادق وحب كاذب، إذا وُجد الحب فهو صادق بكلّ تأكيد، وإن لمْ يوجد فليس هناك حب. لا تستطيع أن تكذب أنك تحب بصدق، أو أنك تحب بكذب، إلا إذا كان لا يوجد حب من الأساس.

****

قصّ عليّ أصدقاءٌ لي قِصَصهم عن الحب ولكني لمْ أصدقهم، كذّبتُهُم جميعاً. لمْ يكن الحب حينها قد استوطنَ قلباً يكفُرُ به كلّما سمعَه، ولكن ما إن حلّ به آمن به. جلستُ مع نفسي حينها لعلّي أصِل – أنا وهي – إلى تفاهم حول الحب، قرّرنا معاً أن أحب ولكن بشرط: إن لقيتُ الفتاة التي تستحقّ قلبي. بدأتُ أضعُ نفسي مكان شخص يستطيعُ أن يحب لعلّي أكذِبُ على نفسي أني أحب ولكني لمْ أفلح في التمثيل، فشلتُ في المشهد الأول؛ لأن الحب ليس تمثيلاً، وإنما حقيقة مُطلقة. لمْ أكن أملكُ تلك الرغبة التي تراودُ الشباب في أن يبحث

كلٌ منهم عن فتاة لقضاء الوقت معها، أو أن تكلّمه، أو حتى تنظر إليه، كلّ ذلك لمْ يكنْ يعنيني إطلاقاً، ولا أعيره اهتماماً؛ فأنا أنظُرُ بطريقة أخرى للحب، وسأُحب بطريقة لمْ يحبها أحدٌ من قبل. كان بعض من زملائي يتمنّى أن تتكلّم معه إحدى الفتيات، لا أعرف ما هو الشعور الذي يشعُرُ به حينها.. لمْ أكن آبَهُ لتلك الأشياء، وكنتُ أصِفُها بالسخيفة.

مرّت الأيام والأشهر سريعاً، وفي يومٍ من الأيام الدراسيّة في الكليّة، وبينما أنا قاعد على مقعد جوار باب الكليّة من الداخل أنظر إلى لابتوبي، لا أعرف ماذا كنتُ أعمل في ذلك الوقت، ربما تكليف لمعيد.. ربما، وربما بحث لدكتور أصرّ على تسليمه في وقت محاضرته الساعة الثانية عشرة ظهراً، وبين هذا وذاك – مرّت فتاة الأحلام التي كنتُ أعتقد أنها في الأحلام والتهيؤات فقط وليستْ في الواقع، وكان البعض قد قال لي أن من المستحيلِ أن تصادفَ فتاة بتلك المواصفات التي وضعتَها أنت.. كانتْ في طريقها إلى قاعة المحاضرة، كانتْ متأخرة بعشر دقائق عن المحاضرة، رفعتُ رأسي حينها لأستريح قليلاً من العمل على اللابتوب، وإذا بي...

وإذا بي أرى... فتاة لا توصف، فتاة سقطتْ من السماء، نعم، ليستْ من أهل الأرض، وإلا لرأيتُ الكثير من جنسها. فتاة ذات جمالٍ خارق، وروحٍ هادئة، أمّا الابتسامة فحدّث ولا حرج، بابتسامتها توقِفُ حرباً عالمية، بابتسامتها تعيدُ إلى الجسدِ الروحَ رغم إنهاكه وتعبه ويأسِهِ من الحياة، بابتسامتها تفتحُ المدن المغلقة والقصور العالية، بابتسامتها تغزو العالم بدون أيّ مقاومة سلاماً في سلام، بابتسامتها تعيدُ الحياة إلى طبيعتها في مدينة أهلكتْها الحروب والنزاعات وعاثَ فيها الخراب والدمار.

ظللتُ أنظُرُ إليها حتى ولّتْ من أمامي ذاهبة إلى محاضرتها في الطابق العلوي. لمْ تمهلني كثيراً حتى أتمعّن في النظر فيها وأتلذّذ بذاك الجمال الذي لمْ يكن إلا في الأحلام وأصبحَ الآن واقعاً أنظُرُ إليه، لمْ أُحوّل ناظري إلى أيّ مكان آخر، ظللتُ أنظُرُ إلى ذلك المكان الذي اختفتْ فيه.. أطلقتُ على نظرتي حينها (النظرة السحريّة)؛ لِما كان لها من تأثير سحريّ على

قلبي، لمْ أتوقّع أن تجذبني إليها بكلّ تلك القوة التي لمْ أستطِع مقاومتها. تعجّبتُ من نفسي كثيراً: ما الذي حلّ بي؟! أمعقول ذلك: أنني سأُحِب؟! أمعقول أن هذا هو الحب الذي يطرق أبوابه؟! كانت الساعة حينها تُشيرُ إلى العاشرة وعشر دقائق، أي أن ذلك كان في وقت الاستراحة التي تستغرق ساعتين متواصلتين، كنتُ أنتظرُ المحاضرة التالية التي تبدأ في الثانية عشرة ظهراً، بينما هي كان لديها محاضرة في الطابق الأول. كانت اللحظة الفارقة في حياتي، وفي ذلك الوقت دخلتُ إلى عالم الحب.. كان مرورها ليس كمرور أيّ فتاة أخرى، رغم أن الكليّة تعجّ بالفتيات الأخريات دخولاً وخروجاً.

نظرتُ إليها..

ونظرتْ إليّ..

ظللتُ نصف ساعة أنظُرُ إلى ذلك المكان، لمْ أحوّل نظري عنه أبداً، تهتُ فيها:

في وجهها المليء بالحب والحياة..

في عينيها الكحليّتين اللتين لا مثيل لهما..

في ابتسامتها الخجولة التي رسمتْها على وجهها في عجل..

في رمشَي عينيها الساحرَين..

في شفتيها الذهبيّتين..

في يديها البيضاوين كالثلج..

في قامتها المتوسّطة لا طويلة ولا قصيرة، وهذا الذي كنتُ أبحث عنه. كلّ شيء فيها جعلني تائهاً فيه، وكأنها المرة الأولى التي أرى فيها فتاة. شعرتُ حينها بشيء أقل ما يمكن وصفه بأنه لا يوصف، وكأنها سحرتْني بكلّ ما تعنيه الكلمة من معنى. أغلقتُ اللابتوب حينها وذهبتُ بعدها إلى المكان الذي أحبه جداً، وهو مكان أذهب إليه كلّما كان لديّ موضوع يحتاج إلى تفكير طويل أو تكليف لمْ أُكمله في المنزل، يقع بجانب الكليّة، وهو المكان الوحيد في الكليّة الذي توجدُ به الحشائش، ليس بالقدر الذي نتمنّاه، كلّما أذهبُ إليه يزولُ عني

التعب بسبب المنظر الجميل الذي أشاهده في ذلك المكان. وصلتُ إلى هناك، كانت الساعة الحادية عشرة والربع، لمْ تتبقَّ سوى خمس وأربعين دقيقة لبداية المحاضرة المقرّرة في الساعة الثانية عشرة، أخذتُ الموقع المناسب لأفكّر، بدأتُ أتذكّرها وكأنها تمشي من أمامي: خطواتها، ابتسامتها، عيونها، شفتاها، يداها الناعمتان.. كلّ تلك الأشياء ظلّت محفورة في ذهني ولمْ تغرب عن بالي أبداً، ظللتُ في ذلك الوضع حتى قارب الوقت على الانتهاء، وبينما أنا غارق في تفكيري إذْ حلّت الساعة الثانية عشرة حيث موعد المحاضرة.

ذهبتُ مسرعاً إلى القاعة، وصلتُ حينها والدكتور كان قد سبقني إلى القاعة. استأذنتُ ودخلتُ إلى القاعة ولكن عقلي ما يزال خارج الباب المغلق، ما زلتُ أفكر فيها، بكلّ تفاصيلها، سيطرتْ على عقلي ولمْ أستطِع إخراجها منه، شعرتُ حينها أنه قد حدثَ لقلبي شيء ولن أتمكّن من علاجه. بدأت المحاضرة وانتهتْ ولمْ أعرف عن أيّ شيء تحدثتْ وما هو الموضوع الذي تناولتْه. خرجتُ من المحاضرة وذهبتُ إلى المكان الذي رأيتُها فيه لعلّي ألقاها، ولكني لمْ ألقَها، ربما ذهبتْ إلى البيت، قرّرتُ بعدها الذهاب إلى البيت بعد اقتناعي أني لن أجدها.

ركبتُ الباص (الحافلة) متّجهاً إلى البيت وما تزال تلك الفتاة على البال لمْ تفارق خيالي مُطلقاً حتى وصلتُ إلى البيت.. لمْ أنتبه إلا وأنا في المكان الذي يقِف فيه الباص. نزلتُ من الباص، واتّجهتُ إلى البيت وأنا ما زلتُ غير مصدق لما رأتْ عينايَ أبداً. ربما الحب بدأ يتسلّل إلى قلبي الذي ظلّ يكفُرُ به لسنوات طويلة، وصلتُ إلى البيت أخيراً، طرقتُ الباب؛ ففتحتْ أمّي لي الباب، ورأتْني ليس ككلّ يوم.

سألتْني:

- ماذا بك؟!

قلتُ لها:

- لا شيء.

قالتْ لي:

- لا تكذب عليّ!

قلتُ لها:

- إن ابنك بدأ يفكّر بالحب، وربما بدأ الحب يسيطرُ عليه.

قالتْ لي:

- في يوم وليلة؟!

قلتُ لها:

- نعم على ما يبدو. كانت أمّي تعرف موقفي الرافض لما يُسمّى (الحب).

لمْ أتناول وجبة الغداء ذلك اليوم، اتّجهتُ إلى غرفتي، غيّرتُ ملابسي، ومن ثمّ ذهبتُ إلى السرير لأخذ قسط قليل من النوم لعلّي أرتاح قليلاً من التفكير بتلك الفتاة.. لمْ أستطِع النوم، وظلّت الأسئلة تتلاحق في ذهني، وجميعها كانت تنتهي بتساؤل واحد: أمعقول أنني بدأتُ أحب، وأن قلبي استحلّه الحب؟! آمنتُ بالحب في ذلك اليوم، وعرفتُ أن الحب موجود بالفعل.

كانت فتاة لمْ أرَ مثلها من قبل، فتاة بمواصفات خاصة. إنها تماماً الفتاة التي رسمتُها في مخيّلتي ذات يوم وفكّرتُ بأنني لو وجدتُ فتاة بمواصفاتها يوماً سأفكّر بالحب، وكنتُ حينها أظنّ ذلك صعباً بل مستحيلاً، وها أنا أجدُها وأشاهدُها وهي مارّة أمامي. لمْ أَنَم تلك الليلة، كلّ ما فيّ كان لها بصمة فيه: عقلي يفكّر بها، قلبي ينبض بحبها، عيناي تنظران إليها. فتاة ليست قصيرة وليست طويلة، إنّها ما بينهما، وهذا ما جعلني أُغرمُ بها.. فأنا معجب بالمرأة الطويلة، ليس جميعهنّ بل البعض منهنّ، والحقيقة إذا كانت نفس الفتاة التي شاهدتُها والتي ربما ستدخلني عالم الحب فإني سأحبها كيفما كانت طويلة أو متوسطة. لا أقلّل من شأن البقية؛ فكلّ شخص له نظرة مختلفة للمرأة: البعض يحب القصيرة، بينما البعض الآخر يُفضّل الطويلة؛ فالطول أو القِصَر لا يحدّد مدى الحب للمرأة، بل هو نابع ممّن يراها في

نظره: إن كان معجباً بها فسيراها أجمل امرأة في العالم، وإن لمْ يحبها سيراها غير ذلك، وما بين هذا وذاك هو الحب الذي يحدّد.

تمنّيتُ أن يأتي الصباح مسرعاً لأذهب إلى الجامعة وألقاها هناك، ولكن كالعادة عندما يكون لديك شيء مهم ومهم جداً أسهرَك طيلة الليلة الماضية، ومنع النوم من الاقتراب منك- يمرّ الوقت ببطء وببطء شديد، ليس بمقدوركَ فعل شيء سوى الانتظار حتى يطلع الفجر، حتى ترى الشمس تنسجُ خيوطها البيضاء من على نافذة الغرفة.

أتى الصباح بعد طول انتظار، وكأنها مرّت سبع ليالٍ كاملة. بدأت الشمسُ تُظهِر ضوءَها الذهبي المخبّأ خلف عتمة الليل. استيقظتُ مسرعاً بعد قيلولة بسيطة من النوم أخذتُها بعد صلاة الفجر. فتحتُ عينيّ مستيقظاً، نظرتُ إلى هاتفي الجوّال، إنها الساعة السادسة صباحاً، جهّزتُ حقيبة الجامعة، ارتديتُ ملابسي، تمشّطتُ ورشّشتُ القليل من العطر. مرّ الوقتُ سريعاً، إنها الساعة السابعة إلا ربع. خرجتُ مسرعاً من الغرفة، ارتديتُ جزمتي السوداء، تناولتُ الإفطار في البوفية (كافتيريا) القريبة من بيتنا والتي تبعد مسافة قصيرة. أكملتُ الإفطار، الساعة تتّجه إلى السابعة صباحاً، خرجتُ من البوفية، ركبتُ الباص المتّجه إلى الجامعة. وصلتُ إلى الجامعة أخيراً، نزلتُ من الباص، اتّجهتُ مباشرة إلى الكليّة وكانت قريبة من باب الجامعة بمسافة قصيرة.. الساعة الآن تتّجه نحو السابعة والنصف صباحاً، كلّ تلك التحضيرات والتجهيزات من أجل تلك الفتاة التي منعتْني من النوم وأسهرتْني طيلة الليلة الماضية، وجعلتْني أؤمن بعالم الحب الذي - إلى وقت قريب - كنتُ أكفُرُ به. وصلتُ إلى بوابة الكليّة، جلتُ بناظري يميناً وشمالاً، شرقاً وغرباً، ولكني لمْ أرَها. انتظرتُ قليلاً ولكنها لمْ تأتِ، ربما تأخرتْ في الطريق أو لديها عذر ما.. لا أعرف. ذهبتُ بعدها إلى قاعة المحاضرة، ما إن دخلتُ إلى القاعة حتى نظَرَ إليّ جميع مَن كانوا في القاعة، كأنها المرة الأولى التي يرونني فيها، وبادرَني أحدهم بالسؤال، وهو زميل يمتاز بالبساطة وطيبة القلب..

قال لي:

- ما قد معانا يا عمري؟! (نسبة إلى لقبي (العمري))..(قالها باللهجة اليمنية الدارجة، ويعني بكلامه ضمنيّاً: لماذا أنتَ متأنّقٌ هكذا؟! ما المناسبة؟!)

قلتُ له:

- ماذا تقصد؟

قال لي:

- العطر والتمشيط ووو...؟!

رغم أنني أحرص على ألا تفارقني مثل هذه الأشياء كي أظهر بمظهر لائق، ولكن ذلك اليوم كان مختلفاً عن بقية الأيام.. حيث كان تأنّقي فيه أكبر، ومن رآني لاحظ ذلك.

ضحكتُ قليلاً:

- هههههه. وقلتُ له:

- لا شيء.

كرّر السؤال مرة ثانية؛ لأن لا أحد اعتادني بهكذا منظر ووسامة ورائحة العطر تفوحُ من المكان وتتنقلُ من مكان إلى آخر؛ فأنا شخص أحب البساطة في كلّ شيء ولا أحب التكلّف.

قلتُ له:

- لا شيء، مجرّد حب. جاوبتُهُ هكذا بكلّ برود، وكأن الأمر بسيط إلى هذه الدرجة. ليته يعلم ما حدث في نهار الأمس وليلته، ليته شعَرَ بما شعرتُ به حينها، ليته يعلم كمية الأفكار التي أتتني طيلة اليوم وليلته الماضية، ليته يعلم كم استغرقتُ في التفكير في عينيها فقط، فكيف بابتسامتها!

وسألني سؤالاً آخر:

- مَن هي؟

كان فضولياً جداً وكثير الأسئلة.

قلتُ له:

- لا يعنيكَ هذا الشيء.

ابتسم، ثم قطع الحديث معي. بعدها أتى الدكتور، وبدأت المحاضرة.

انتهت المحاضرة وذهبنا إلى الاستراحة أو ما تُسمى (البوفية)، وكانت بعيدة قليلاً عن الكليّة. وبينما أنا أتناولُ وجبة الإفطار، إذْ فوجئتُ بتلك الفتاة تمشي من أمامي، وقفتُ في ذلك المكان الذي كنتُ فيه، بدون أن أعرف ذلك، لمْ أعرف إلا وأنا واقف بدون أن أشعر بذلك، لو نظر اليّ أحدهم في ذلك الوقت لقال: ما الذي حدث له؟!

لا أعرف ماذا حلّ بي! وما الذي جعلني أحب وأتعلّق بهذا الشكل! رغم أني كنتُ أعتقد أن الحب غير موجود، وكنتُ مُصِرّاً على ذلك، وكنتُ أراه كذبة كبيرة يتم استخدامها في المسلسلات فقط لأداء غرض معين لمصلحة المسلسل، هكذا كان في ناظري، ولكنني لمْ أعتقد يوماً – ولو حتى للحظة واحدة – أنني سأكون أحد ضحاياه الذين باغتهم بتلك القوة، وكأنه يقول لي: الحب ليس بكذب بل هو اليقين بعينه. ربما هذه رسالة أراد توصيلها إلى شخص كذّبه يوماً ما، وآمن به في يوم آخر: كذّبته بالأمس وصدّقته اليوم. إنه الحب – ولا شيء غيره – الذي يجعلك تغيّر نظرتك نحوه ربما بأقل ممّا استغرقتُ أنا في تصديقه.

بدأتُ بمعرفة تلك الفتاة التي أخذتْ قلبي على حين غرَّة ولمْ تعرف ما الذي سأعانيه بعد ذلك، كانت اللحظات الفارقة في الحب الذي لمْ أكن أؤمن به، ولمْ أكن أتوقّع يوماً من الأيام أنني سأكون واحداً من أهله، وأنني لن أستطيع مقاومته أو دفعه عني كما كنتُ أقول من قبل عندما تحدثتُ مع صديق لي.

الحب يرغمكَ على فعل أيّ شيء حتى لو كان غبيّاً في ناظريك ولكنك تفعله رغماً عنك وبإرادتك الحرّة وأنت مرتاح البال.. تعود طفلاً أحياناً، وأحياناً أخرى تكون عجوزاً في الستين من العمر. لا تعرف ما الذي يحدث معك، كلّ ما تعرفه أنك تحب.

نظراتها، ابتسامتها، كلّ شيء فيها حوّلني من شخص غير معترف بالحب إلى شخص يؤمن به؛ لأنها لمْ تكن كالأخريات، إنها مختلفة عن الجميع. لو بحثتُ سنة كاملة لما لقيتُ مثلها. إنها الفتاة التي أخذتْ قلب شخص كان ذات يوم يستهزئ بالحب، ويقسِمُ أنه لن يصِل إليه.

نعم، هي الفتاة ذات الأربعة والعشرين عاماً، وثلاثة أشهر، وخمسة أيام، وساعتين، وأربع دقائق، وعشرين ثانية، وخمسين جزءاً من الثانية. متوسطة الطول ، وذات مبسم ذهبي، وعيون كعيون الغزال. لو مشتْ على البحر لتواضع لها، وصنع لها جسراً لكي تعبر عليه إلى الضفة الأخرى؛ فهي تفتِن أيّ شيء يراها بما تملكه من جمال ورقّة، هذا الذي يصنعه البحر فكيف بشخص مثلي بسيط، وفي بداية الحب لا يعرف الكثير عنه، ولا حول له ولا قوة – أن يقاوم حبه لها، أو أن يمنعه من الحدوث! كانت ذات بشرة بيضاء مائلة إلى السّمرة، ووجه بشوش لتبدو مبتسمة دائماً في مقابل الكآبة السائدة في هذا العالم. بمجرّد أن أراها بتلك الابتسامة على وجهها تعودُ إليّ السّعادة من جديد، حتى وإن كنتُ في أشدّ حالاتي حزناً. كنتُ أقولُ في نفسي: من أين خرجتْ هذه الفتاة؟! من أيّ كوكب جاءتْ؟! ومن أيّ سماء أُتِيَ بها إلى هنا؟! أقسمتُ حينها أنها ليستْ من هذه الأرض، لا أعرف لماذا! اعتراني شعور لا يوصف وكأنها المرة الأولى التي أرى فيها امرأة. ليست كالأخريات. مختلفة بكلّ شيء.. كلّ شيء. ما ترونه على النساء إنما هو تقليد من نساء أخريات، بينما هي متفرّدة، كلّ شيء حصري بها، لا أعرف لماذا أقول هذا! قد يقول قائل: هي مثل أي امرأة أخرى، ويسأل في نفس الوقت: ما الذي يميّزها عن النساء الأخريات؟! أقول له: ربما لمْ تلاحظ في السطور السابقة؛ فلقد أخبرتك أنها ليست امرأة وليست كالأخريات، لا تنجب النساء مثلها إلا كلّ مائة عام، وكم هو حظي جميل ومميّز أنها أتتْ في المائة العام التي أنا موجود فيها.

قرأتُ وسمعت أن الحور العين موجودات في الجنّة فقط، ولا يستطيع أي شخص الوصول إليهنّ إلا في الحياة الآخرة، ولكنني لمْ أكن أتوقع أنني سأصادفُ واحدة منهنّ ذات يوم ومن غير موعد.

كانت كالحورية على هذه الأرض. لا أعرف كيف أتتْ، ربما أتتْ تبحث عني، هكذا توقعتُ لأنني لمْ أصادف أبداً مثلها: أدباً، وخلقاً، وكلاماً، وجمالاً.. تسحركَ بابتسامتها التي لمْ أرَ مثلها من قبل، بضحكتها التي لمْ أرَ ضحكة مثلها أبداً، ولو بحثتُ لن أجد مثل كلامها الذي لمْ أسمع مثله يوماً.. كان كلّ ما فيها جميل في نظري.

****

انتهينا من الترم الأوّل للسنة الدراسيّة الثانية بعد عناء شديد واضطرابات في الجامعة وتأجيل للدراسة، ولكن كلّ ذلك لمْ يكن يهمّني، ولمْ أنشغل به كثيراً؛ لأن القلب في مكان آخر.. منشغل بأشياء أخرى.

في آخر يوم من الامتحانات النهائية كان لقاؤنا قبل إجازة طويلة امتدتْ لشهر. في ذلك اليوم كان كلٌّ منا ينتظرُ الآخر عند بوابة قاعة الامتحان ليلقي عليه نظرة الغياب. سبقتْني هي بالخروج من قاعة الامتحانات. هي كانتْ أذكى مني وأنا أشهدُ لها بذلك. خرجتُ بعدها بعشر دقائق، وبينما أنا أبحث عنها كانتْ منتظِرة أمام القاعة، ألقى كلّ واحد منا نظرة للآخر، وكأنها نظرة لسنة كاملة، وربما أكثر، وليستْ لإجازة صيفيّة مدّتها شهر وربما أقل، نظر كلّ واحد منا للآخر نظرة حب ووداع، ومن ثم ذهب كلّ واحد منا إلى بيته بفرح اللقاء وحزن آخر يوم من الامتحانات قبل الإجازة. كانتْ ليلة طويلة جداً تلك التي افترقنا في نهارها، وكانتْ في البال طيلة الليل.

عندما أذهبُ إلى النوم تظل فيّ روحاً وصوتاً وكأنها موجودة أمامي لا تبارحني أبداً، أتأملها، أضحكُ معها، وتضحك معي، أتكلّم معها، أتلمّس يدَيها الناعمَتين وخدّها، لكنها في الواقع ليستْ موجودة، كلّ ما هو موجود هو الحنين، والشوق، والسهر، والتأمّل،

والانتظار إلى لقاء آخر. وعندما كنا نتحدّث معاً يكون ذلك اليوم من الأيام المميّزة والجميلة التي لا تُنسى، وليس يوماً عادياً كأيّ يوم، وبعد انتهائنا من الجلوس معاً أظلّ أتذكّر تلك الكلمات، تلك الجلسة الجميلة التي كنا نتحدّث فيها معاً. وفي الصباح الباكر تكون أوّل شخص على بالي لا ينازعها في ذلك أحد.. ورغم الفراق الذي حصل بعد ذلك ولكنني سأظلّ أتذكّرها دائماً، وستظلّ على البال لا تغيب عنه أبداً.

****

الحب ليس أعمى كما يصوّره البعض؛ بل هو النور الذي يضيءُ طريق العشاق. ينيرُ طريق اليائسين. بالحب تعيش، ومن لم يُحِب لمْ يذُق طعم الحياة بعد. قد يكون أعمى ولكن ليس من الناحية التي يتصوّرها بعض الناس، بل من الناحية التي يعرفها العشاق والمحبين. نعم، قد يكون أعمى في حالة عندما يأتيك فجأة بدون سابق إنذار كشيء مارٍّ في الطريق لمْ يعرف إلا وهو في قعر الأرض، ولا يعرف ما الذي حدث له.

بالحب تعيش حياة ثانية غير التي كنتَ تعيشها قبل الحب. الحب يغيّرك مائة وتسعين درجة. إذا لمْ تشعر بتغيير فأنت لمْ تحب بعد. بالحب ترى أشياء من المستحيل أن تراها وأنت لمْ تحب بعد. الأعمى من لمْ يحب، ومن لمْ يحب لمْ يتذوق طعم الحياة أبداً. إذا أردتَ أن تدخلَ إلى الحياة بصورتها الصحيحة فأحِب؛ لا حياة من دون حب.

****

عندما تراها تشعرُ وكأنها الوحيدة على هذه الأرض. لا أحد موجود فيها سواكَ أنتَ وهي فقط. عندما تراها لا تشعر بمن حولك حتى وإن كانوا حشوداً بالمئات. نظراتكَ تصبو إليها، قلبكَ يخفقُ لها، أذناكَ تستمع لِمَا تقوله فقط ولا تأبه بالموجودين، شفتاكَ تنطق باسمها، رجلكَ ذاهبةٌ إليها، جسمكَ بأكمله متّجه إليها. عندما تراها تعود لك الحيوية من جديد، ويغمرك النشاط، حتى وإن كان قد أنهكَ التعب. عندما تراها لا تشعر بالعالم من حولك. العالم هي وهي العالم. عندما تراها تنسى ما أزعجك بالأمس، وقبل الأمس،

والأسبوع السابق، والشهر، والسنة. عندما تراها وكأنها المرّة الأولى رغم عدد اللقاءات المتكرّرة. عندما تراها تكون أسعد اللحظات في اليوم، والأسبوع، والشهر، والسنة. عندما تراها وكأن السماء فتحتْ أبوابها لتخيّرك مِن أيّ واحد تدخل. عندما تراها لا تشعر بشيء.. تشعر بها فقط. عندما تراها يتوقّف الزمن؛ فهي الزمن والزمن هي. عندما تراها تسعد في تلك اللحظات، والساعات، والأيام، والأشهر القادمة.

عندما كانتْ تريد لقائي تكون بأبهى صورة وأجمل منظر. لا تفعل ذلك إلا عندما تريد لقائي ومتأكّدة من أنها ستلقاني؛ لأن في بعض الأيام لمْ نكن نلتقي ببعضنا في الكليّة. كانت تحضيراتها من نوع مختلف: تلبسُ أجملَ ما عندها، وتتعطّرُ بأجمل رائحة عطر لديها، وتلبسُ ذلك الحذاء ذا الكعب المتوسّط، وكلّ ما هو جميل لديها ترتديه ذلك اليوم. هذا عندما يأتي اللقاء من طرفها.

عندما يأتي الاشتياق لا أحد يستطيع إيقافه، كلّ هذا من أجلي، لمْ أكن أعرف ذلك إلا عندما التقينا وألمحتْ لي بالموضوع، ولكنها لمْ تخبرني بتفاصيل أكثر؛ ففي اعتقادها أنني لن أفهم ذلك، أبديتُ إعجابي الشديد بها، فرحَتْ كثيراً بذلك الإعجاب الذي أبديتُهُ لها، ورغم ذلك فأنا أحبها بكلّ شيء فيها، سواء كان إيجابياً أو حتى سلبيّاً؛ فمن وجهة نظر الحب لا يهمّ كلّ ذلك.

من وجهة نظري مهما لبستْ وتزيّنتْ تظلّ كما هي. الأهم من كلّ هذا أني معجبٌ بها حدّ الجنون وهذا يكفي. الأهم أنها تحبني وأنا أحبها، لا تهمني كلّ تلك المظاهر؛ فكلّ تلك الأشياء ثانوية لا تعنيني؛ فأنا أحبها لجمال روحها، ورقّة قلبها، وسحر عينيها.. فأنا أحب ما تُخفيه وليس ما تبديه؛ فالملابس وكلّ تلك الأشياء لا تعنيني؛ لأنها لا تعطيني الحب، مَن يعطي الحب هو القلب، مَن يعطي الحب هو جمال روحها، مَن يعطي الحب هو خلف تلك الأشياء. لمْ أنزعِج من مظهرها يوماً، وكلّ يوم أراها بنظرة مختلفة عن اليوم السابق.

وفي لقاء آخر عندما رأيتُها بتلك الحالة من الجمال عرفتُها مباشرة، رغم أنها كانت تعتقد أني لمْ أرَها أو أعرفها، صدّقوني ولو كانت بين ألف امرأة لأخرجتُها منهنّ خلال دقائق فقط. كان لباسها أجمل ما رأتْ عيني من قبل رغم معرفتها أن بساطتها هي ما جذبتْني إليها وجعلتْني متيّماً بها.

عندما رأيتُها لمْ أتمالك نفسي فعبّرتُ لها عن مدى إعجابي بمظهرها الجديد الذي كان خصّيصاً لذلك اليوم.. ذهبنا للجلوس في الطاولة المجاورة وبدأتُ أنا بالحديث..

قلتُ لها:

- ما أجملكِ اليوم! تبدين وكأنكِ قمر في ليلة اكتماله.

قالتْ لي بحياء شديد:

- لا تبالغ!

قلتُ لها:

- ومَن قال لكِ أني أبالغ؟! بل وأجمل من القمر نفسه.

ابتسمتْ ابتسامة جميلة ونظراتها لا تفارقني أبداً.. ثم قالتْ:

- ما رأيك فيّ؟

قلتُ لها:

- أجمل ما خلق الله على هذه الأرض.

قالتْ لي:

- إلى هذه الدرجة!

قلتُ لها:

- وأكثر من ذلك.

ثم قالتْ لي:

- ألمْ تلاحظ شيئاً؟

قلتُ لها:

- وإن لمْ ألاحظ فأنا أعمى.

ثم قالتْ:

- ماذا؟

قلتُ لها:

- ماذا؟

قالتْ لي:

- ماذا تلاحظ؟

قلتُ لها:

- ماذا عسايَ أن أقول؟! كلّ حروف اللغة عاجزة عن وصفكِ..

ثم قالتْ:

- تكلّم، قل أيّ شيء.

قلتُ لها:

- لمْ تدعِي للجمال مكاناً أمام جمالِكِ..

ضحكتْ ضحكة هادئة وجميلة وأنا أمتّع نظري بتلك العيون السوداء الكحليّة وتلكما الشفتين الذهبيّتين.

وعلى غير عادتها عندما نكون معاً تنقضي الساعة بسرعة شديدة، لا تحترم ما نحن فيه ولا تعيرُ المحبين اهتماماً، تمضي مسرعةً نحو النهاية، تمنعنا من أن نقضي الوقت معاً، تحسدنا على ذلك، لا تريدنا أن نكون معاً ولو لساعة من وقتها، ساعة واحدة بدون إزعاج من الآخرين نريد أن نكون أنا وهي فقط، لا دخل لنا بالآخرين، ولكن دائماً ما إن نكون معاً حتى يأتي شيءٌ ما يقضي على تلك اللحظة الرومانسية والجميلة التي نعيشها؛ فيحوّلها من لحظة رومانسية إلى لحظة من الإزعاج.

وبينما كنتُ أتمعّن في النظر إلى عيونها الكحليّة، قاطعني صوتُ زميلي وهو يقول لي إن المحاضرة بدأتْ والدكتور موجود في القاعة.

قلتُ له:

- اذهب وأنا سألحقك.

تأخرتُ قليلاً. بعدها ذهبتُ مسرعاً إلى القاعة. كان باب القاعة قد أُغلِق. طرقتُ الباب، فتح الدكتور الباب وقال لي:

- لماذا تأخرت؟

لمْ أُعِره اهتماماً وكأني لمْ أسمعه..

كرَّرها مرة ثانية:

- لماذا تأخرت؟

قلتُ له:

- هل تقصدني؟

قال:

- وهل يوجد أحد غيرك؟!

التفتُّ يميناً وشمالاً، كنتُ الوحيد المتأخر بالفعل.. قلتُ له:

- كنتُ أراجعُ الدروسَ مع زميل لي.

هنا تذكّرت أني كنتُ مع مَن أخذتْ قلبي، وتذكّرتُ حينها أني ذهبت مسرعاً إلى القاعة ولمْ أودّعها.. زعلتُ كثيراً لذلك الموقف الذي بَدَر مني رغم أنه من غير قصد، وظللتُ أفكّر بها، وأسأل نفسي: ماذا ستقول لي عندما نلتقي؟ وكمْ هي غاضبة الآن؟ وهل ستسامحني على ما فعلتُ؟ وماذا سأقولُ لها؟ وما هو العذر المقبول؟

أسئلة غطّتْ على المحاضرة التي لمْ أعرف ماذا كانتْ وماذا كان موضوعها.. وبعد ساعة ونصف خرجنا من المحاضرة. ذهبتُ حينها لأبحث عنها كالمجنون. كلّ من كان يراني لا

يصدق أنه أنا.. فتّشتُ هنا وهناك، سألتُ زميلاتها ولكنني لمْ أصِل إلى نتيجة. عدتُ إلى البيت وأنا مكسور الخاطر وأفكّر بالغد وماذا سأقول لها.

لمْ أنَمْ تلك الليلة أبداً وأنا أعاتب نفسي على ذلك الموقف. وما إن أتى الصباح حتى ذهبتُ مسرعاً لأرتدي ثيابي؛ كي أذهب إلى الجامعة. ذهبتُ إلى الجامعة، وكنتُ ذلك اليوم أوّل شخص يصِل إلى الجامعة. لمْ يكن قد وصَلَ أي شخص إلى هناك. بدأتُ بالجلوس على الكرسي الاسمنتي الموضوع عند بوابة الكليّة، وبدأتُ في النظر إلى كلّ شخص يدخل إلى الكليّة كالذي يبحثُ عن شيء ما ومتلهفٌ أن يراه.. مرّت الدقائق وما زلتُ موجوداً أمام البوابة كالذي ينتظرُ من أحدهم أن يلقي عليه سلاماً فقط ويذهب. لا أريد شيئاً آخر. تمنّيتُ حينها أن تمرّ من أمامي وأنظر إليها. لا أُريد شيئاً أخر، فقط مجرّد رؤيتها ومن ثمّ أذهب إلى المحاضرة.

****

عندما تراها كأنها ضوء في ليلة سوداء، تفرحُ به عندما يأتيكَ ليرشدكَ إلى الطريق الصحيح. عندما تراها يختفي الآخرون وتظهر هي لا أحد ينازعها على ظهورها. عندما تراها تشعر أن الدنيا فتحتْ لك أبواب الخير. عندما تراها تكون أنت وهي، ومَن حولكم لا شيء.

****

أتى وقت المحاضرة. ذهبتُ إلى المحاضرة وأنا لمْ أرَها بعد، وقلتُ في نفسي: لعلّها دخلتْ ولمْ أُلاحِظ. دخلتُ إلى المحاضرة وبالي مشغولٌ بها، لا أحد يعلم ماذا بي إلا أنا، وكالمحاضرات الأخريات لمْ أعرف عن ماذا كان يتحدّث دكتور المادة. جاء وقت الخروج من المحاضرة. ذهبتُ مسرعاً للبحث عنها من جديد لعلّي ألقاها. ربما أتتْ متأخرة بعدما ذهبتُ. بحثتُ كثيراً في كلّ مكان من أروقة الكليّة وقاعاتها ولمْ أجدها. سألتُ زميلاتها:

- هل رأتها أيّ واحدة منكن؟

فأجبنَ جميعهنّ:

- لا، ربما لمْ تحضر. أيقنتُ أني لن أجدها.

ظلّ الحالُ على هذا يومين وأنا أترقّب وأبحث عنها للقائها، أو حتى النظر إليها؛ لأستريح مما أنا فيه.

في اليوم الثالث كان اللقاء، وكنتُ ما أزال متلهفاً للقياها كما كنتُ أوّل يوم. وبينما أنا أهمُّ بالدخول إلى قاعة المحاضرة إذْ لمحتُها وهي ماشية، تراجعتُ من الدخول إلى المحاضرة، وفي ذلك اليوم لمْ أحضر المحاضرة.. ذهبتُ إليها، وعندما وقفتُ أمامها بدا وكأنها أوّل مرّة أراها فيها، وليس مجرّد غياب لثلاثة أيام فقط.

وسألتُ نفسي حينها: كيف لشخصيّتها الهادئة جداً أن تسبّب كلّ هذا الضجيج الذي بداخلي؟! إلى اليوم لمْ ألقَ لها شبيهاً، ولو حتى لجزء منها: لابتسامتها مثلاً، عينيها، خطواتها، وجهها المليء بالحياة والحب، يديها الناعمتَين، أيّ شيء يذكّرني أو حتى يُنسيني إياها، ولكني لمْ أجد.

وقفتُ أمامها أنظُرُ إليها، وكأنها منظر يصعُبُ وصفه. في ذات الوقت لمْ أشعر بمَن حولي. كانت الصالة تعجُّ بالطلاب والطالبات ولكنني لمْ أشعر بهم؛ كلّ تركيزي كان منصبّاً عليها، كأن الوقت توقّف عندها.

بعد ربع ساعة من النظر إليها قلتُ لها:

- لماذا لا نذهب ونجلس في تلك الطاولة؟

قالتْ لي إن لديها محاضرة. أعرف أنه ليستْ لديها محاضرة؛ لمْ تزلْ زعلانة ممّا حصل قبل ثلاثة أيام.. قلتُ لها:

- سنلتقي بعد محاضرتك. أنا سأنتظر هنا حتى تخرُجي من المحاضرة، وبعد ذلك سنتحدّث. حينها دخلتْ مع صديقة لها لحضور محاضرتها. انتظرتُ ساعتين أمام القاعة حتى انتهت المحاضرة، وبدأ الطلاب بالخروج وما زلتُ أنتظِرُ خروجها، وما إن خرجتْ حتى قالتْ لي:

- لِمَ ما زلتَ منتظِراً؟!

قلتُ لها:

- أنتظركِ.

قالتْ لي:

- لماذا لمْ تذهب؟!

قلتُ لها:

- إلى أين؟! أنا أذهب إليكِ وأعود إليكِ.. إلى أين أذهب؟! دعينا نتحدّث.

قالتْ لي:

- عن ماذا؟

قلتُ لها:

- عمّا حدث قبل ثلاثة أيام.

قالتْ لي أنها نسيتْ ذلك.

قلتُ لها:

- وإن نسيتِ، أنا لمْ أنسَ ذلك.

المرأة لا تنسى بكلتا الحالتين السيئة والحسنة: إن عاملتَها بحُسن احترام واهتمام لن تنسى ذلك، وإن قابلتَها بالعكس من ذلك أيضاً لن تنسى ذلك؛ فالمرأة لديها ذاكرة قوية في مثل هكذا أمور.

قالتْ لي:

- لقد أخبرتكَ أنني نسيتُ ذلك.

قلتُ لها:

- وأنا قلتُ لكِ أنني لمْ أنسَ.

كان بعض من زميلاتها ينتظِرنَها في البوابة للذهاب معاً؛ لأن الوقت كان متأخراً نوعاً ما. خمس دقائق كانتْ كفيلة بأن نعود إلى العهد السابق وأكثر من ذلك؛ فالمرأة بشكل عام تحب من يهتمّ بها، من يسأل عنها، من يجعلها أولويّة لديه، من يعدّها كياناً مهمّاً بالنسبة إليه وليس شيئاً ثانوياً متى ما أراد ذهب إليها ومتى ما شاء لمْ يذهب، متى ما أراد كلّمها ومتى ما أراد لا؛ فالمرأة ليستْ جسداً فقط كما يفهم البعض بل ويصوّرها للآخرين على هذا النحو، بل هي مثلي ومثلك لديها روح وعاطفة وحنان، تحب وتكره، وليستْ موجودة في هذه الأرض لتنفّذ فقط؛ بل لها ما لها وعليها ما عليها، لديها حقوق وعليها واجبات كما الرجل، قلتُ لها حينها كلمات لمْ تخرج إلا لها، ظلّت سنين طويلة موجودة ولكن وقتها حان وأصبحتْ لها، ولا أعرف أيّ جرأة أتتني لأقول ذلك.

****

أتعرفون شيئاً عن النظرات؟ أنا سأخبركم ذلك: نظراتها تطرق القلب بلا استئذان. نظراتها تعبّر عن مدى الحب العميق الذي بداخلها. نظراتها كفيلة بإعادة الحياة. نظراتها مهدئ علاجي لأمراض كثيرة. نظراتها هي ما جعلتْني متيّماً بها حدّ الجنون ولا أبالغ في ذلك. نظراتها كسهام خرجت من جعبة رامٍ تتّجه نحوك مسرعة فلا تستطيع الهرب ولا حتى حماية نفسك، سهامها مسالمة، ومحبة، وتثير الإعجاب، ولا تميتُ القلبَ، بل تحييه وتعيدُ إليه الروحَ من جديد. نظراتها تختزل كلّ ما بها من جمال، وحياء، وحب، ولطف، وكلّ ما بها من أنوثة. تشعُرُ وكأنك أمام امرأة حقيقية ليستْ كالأخريات تستحق أن يُطلق عليها أنثى وليس امرأة. إنها الوحيدة على هذا الكوكب المؤهّلة لهذا اللقب؛ لأنها احتوتْ على معاني اللطف، والحنان، والحب. اختزلتْ كلّ ما تتصوّره في جميع النساء لتلقاه موجوداً فيها؛ ولذلك هي مختلفة عن الأخريات، أمّا الأخريات فجميعهنّ نساء وما أكثرهن.

****

في ذات يوم غابتْ ولمْ تحضر إلى الجامعة؛ تساءلتُ كثيراً: ما الذي حلّ بها؟ لماذا لمْ تحضر؟! ما الذي منعها؟ أهي مريضة؟ أم أن شيئاً آخر وقف عائقاً أمام حضورها؟ كلّ هذه الأسئلة جالتْ بخاطري وأنا أبحث في أروقة كليّتنا وأتنقّلُ من قاعة إلى أخرى، وأسأل نفسي: أين هي؟ كان غيابها بعد إجازة الجمعة ليومين متتاليين لمْ أرَها خلالهما. انتهيتُ من البحث عنها في الكليّة ولمْ أجدها، بحثتُ عنها وكأنني أبحث عن قطعة من السكر ذابتْ في مياه. بحثتُ في جميع مرافق الكليّة لعلّي أجدها. جاء وقت المحاضرة فدخلتُ القاعة. لمْ أعرف ما هو موضوع الدرس الذي تحدّث عنه الدكتور. كان الجسم موجوداً بينما القلب في مكان آخر، وكأني مسجون في سجن ولستُ طالباً جالساً على كرسي في قاعة دراسيّة. ما إن همّ الدكتور بانتهاء المحاضرة حتى كنتُ أوّل شخص يخرُجُ من ذلك السجن، أقصد (القاعة). ذهبتُ مسرعاً لأبحث من جديد لعلّي أجدها هنا أو هناك، ولكن -للأسف الشديد- لمْ تحضر إلى الكليّة في ذلك اليوم، عرفتُ ذلك من بعض زميلاتها اللواتي أخبرنني بذلك.

****

أنتِ أجمل من مليون امرأة. لماذا تضعين كلّ تلك الأشياء؟! فأنتِ أجمل بآلاف المرات من كلّ مساحيق التجميل التي تضعينها على شفتيكِ الجميلتين أو عيونكِ الجميلة الفاتنة. أنا أحبكِ بكلّ ما فيكِ. لا أحب التكلّف كما يفعل الآخرون. أنا نسخة مختلفة عن الآخرين تماماً، جميعنا بشر ولكني مختلف عنهم. مهما بدوتِ ومهما فعلتِ لتظهري كما تحبين فأنا لا أبالي بتلك الأشياء؛ أنا أريدك كما عرفتكِ منذ أوّل نظرة؛ فأنا أحبك بكلّ شيء فيكِ. لا أهتمّ للأشياء الأخرى التي يريدها الآخرون. أحبكِ بنسختكِ الأصليّة، بشخصيّتكِ التي عرفتكِ بها، بطبيعتكِ الجميلة، وضحكتكِ الساحرة، وعيونكِ الفاتنة. لقد قابلتُ الكثيرَ من النساء ولكنّكِ مختلفة ولستِ كإحداهن. أنتِ قمر سقَطَ من السماء على حين غفلة. أنتِ أجمل مَن رأتْ عيني طيلة السنين الماضية، أنتِ جوهرة سقطتْ على الأرض ولكن لا أحد يعرف قيمتكِ غيري، أنتِ مدينة مليئة بالحياة والصخب تلقى فيها جميع أصناف النساء مجموعة

فيكِ أنتِ. تمنّيتُ يوماً لو كنتُ شاعراً حتى أتغزّل بتلكما العينين اللتين أوصلتاني إليك، أو أقول ولو بيتاً واحداً في تلك الابتسامة الجميلة التي تملكينها، أو أقول شيئاً عن خطواتكِ أو قامتكِ وجمالكِ، أنتِ التي عجزت الأمهات أن يلِدْنَ مثلكِ، أن يُنجِبن واحدةً تملكُ ولو صفة واحدة ممّا تملكين من صفات، أو كمبسمكِ الذي يشبه قطعة من عسل يغطّيه البياض، أو خدودكِ التي تشبه التفاح، وابتسامتكِ التي بمقدورها أن تسحرَ قلوب الملايين من البشر فكيف بقلبٍ واحد كقلبي أنا عندما هام فيكِ!

لو رآها المتحاربون في وطني لركعوا لها وطلبوا منها الغفران والمسامحة على كلّ ما اقترفوه في حق هذا الشعب المغلوب على أمره، أولئك الذين لا يعرفون سوى الحقد والكراهية. لا أعرف لماذا لا يجرّبون الحب بدلاً عن كلّ ذلك! لماذا لا يسلكون طريقاً غير الذي هم فيه الآن؛ لعلّهم ينظرون إلى ما يعملون بأنه شيء تافه ليستْ له قيمة، ويندمون عليه، ويطلبون الغفران منّا كمجتمع عانى من كرههم لبعضهم بعضاً حتى أوصلونا إلى حافة كلّ شيء سيئ!

لو رآها يهوديٌّ لأعلن إسلامه دون تردّد. لو دخلتْ مدينة ليلاً لأُطفِئَت الأنوار احتراماً لجمالها لتنيرَ هي المدينة. ابتسامتها توقظ الشمس من مكانها لتخبرها أنها أجمل من إشراقتها صباحاً. لمْ يكذب الشعراء والفنانون والأدباء والكُتّاب والهواة والموهوبون والمتغزّلون وكلّ شخص كتَبَ عن الحب أو تغزّل بالعيون أو فُتِن بالجمال أو الابتسامة؛ فلعلّهم لمْ يتمكّنوا من مقاومة كلّ ذلك فجعلوا الكتابة هي ملجأهم الوحيد للتعبير عن كلّ ما يودّون قوله. لمْ يكن الحب يوماً قراراً بل إجباراً وعليك تقبّله، أمّا الرّفض فليس من حقك. في الحب لا تستطيع عمل أيّ شيء، محبوبتكَ هي من تتحكّم بك، بقلبك، وبعواطفك، وحتى بعقلك، فإمّا أن تكون بك رحيمة أو قاسية.. القرار بيدها وحدها.

****

كانتْ لديها شنطة جميلة تحملها على جنبها، كانت تحمل بداخلها لابتوباً ذا لون ورديّ جميل وبعض الكتب والملازم والأقلام وكرّاسة الرسم. وبالمناسبة كان رسمها جميلاً جداً، لقد أرتْني ذلك يوماً ما، بل ورسمتْ لي رسمة ما زلتُ أحتفظُ بها إلى اليوم، لا أودّ الإفصاح عمّا هي الرسمة؛ ربما ستنزعج وأنا لا أحب إزعاجها.

لمْ تكن تحمل كما تحمل الفتيات الأخريات أدوات الزينة، وما يُطلق عليه (المكياج)، والذي يحملنه معهنّ دائماً أين ما ذهبنَ ولا يفارقنه أبداً وكأنه من الضروريات الأساسية لأيّ فتاة، ربما لبعضهنّ نعم، أما الأخريات فلا أعتقد ذلك؛ فالجمال ليس ما تضعه الفتاة على وجهها.

كانتْ مختلفة عن الجميع (أتحدّث عنها، ولا أقارنها -هنا- بزميلاتها فقط، وإنما بكلّ فتيات العالم). لمْ أصادِف في حياتي هكذا فتاة بتلك الصفات والخصائص التي أتمنّاها، والتي كنتُ أقنعُ نفسي دائماً بأني لن أصادف فتاة بتلك المواصفات، وأن ما أبحث عنه يعدّ ضرباً من الخيال. هي أتتْ من الخيال وأصبحت واقعاً أعيشُهُ كلّ يوم. لمْ تكن تلوّن يديها بألوان الطيف السبعة كما تفعل الفتيات حتى تصبح أيديهنّ وكأنها لوحات رسم ملطّخة بالألوان وليست أيدي فتيات. أحببتُها كما هي ولا أحب أيّ شيء يلامسُ يديها.

فيها طفولة أهل الأرض جميعهم، وأعقل امرأة توجد تحت السماء. سألتْني ذات يوم:

- كيف أبدو؟.. فقلتُ لها:
- طفلة في الرابعة من العمر، وشابة في الرابعة والعشرين من العمر، وحكيمة في الخمسين من العمر.

****

الحب هو عدم التكلّف، اقتناعك بأيّ شيء يأتي من محبوبك مهما كان لكنه كبير في نظرك. الحب: شعور عميق لا يوصف، ولا يشعر به إلا من جرّبه. الحب هو ذلك الشيء الذي كلّما أتاكَ شيءٌ يزعجك تذكّرته حتى يذهب ما بك. الحب هو أن تظلّ منتظِراً لحبك ساعات وأيام. الحب لا يستأذِن عندما يأتي. الحب أن تنام ومحبوبك في ناظريك، يأتي الصباح ولمْ يزل

على بالك، لا يفارق تفكيرك أبداً. الحب هو أن تحب مرة واحدة وإلى الأبد. الحب هو أن ترى آلاف النساء ولكن لا تعجبك إلا محبوبتك التي أحببتَها بصدق. الحب هو ألا تكذب على مَن أحببت. الحب هو عامل نفسي، متى ما ذكرته وأنت في وضع سيئ أعادك إلى الوضع الطبيعي المليء بالحياة والتفاؤل. مهما أقنعك الآخرون أنه لا يوجد شيء اسمه (الحب) فلا تصدّقهم؛ لأنك تعرف أنه شيء موجود وحقيقي. الحب هو الشعور الذي لا يعرفه أحدٌ سواك، ومهما صوّره لك الآخرون لا يستطيعون. الحب هو الشيء الذي لا تستطيع وصفه مهما كتبتَ وتعمّقتَ فهو يظلّ ذلك الشعور الجميل الذي لا تستطيع وصفه ولو أتيتَ بعلوم الأرض جميعها. مهما كانت مكانتكَ، عندما يأتيك الحب ستضحّي بمكانتكَ، وستختارُ الخيار الثاني بكلّ تأكيد.

الحب كالمغناطيس يجذب إليك كلّ شيء من محبوبك: الصحيح والخطأ. عليك تقبّله بكلّ ما فيه من سيئات وحسنات. الحب عابر للحدود، مهما فعلتَ وحشدتَ من جيوش وعساكر ومغريات وحواجز اسمنتية، ولو أعلنتَ حظر التجوال، وأغلقت المطارات والموانئ، ونصبتَ نقاطَ تفتيش في الطرقات، وقطعتَ الاتصالات والإنترنت، وأعلنت أنك أصبحت غير متصل بالعالم- فإنك لا تستطيع توقيفه، لا تستطيع.

يتجاوز الجميع ليصِل إلى حيث يريد، ليصِل إلى حيث يحب ويعشق، ليصِل إلى مَن يسهر لأجله طيلة الليالي، ليصِل إلى مَن منَعَه من النوم؛ من أجل أن يتذكّره، ولا يغيب عن باله طيلة السنين، ليصِل إلى مَن ملأ قلبه تلهّفاً وشوقاً إلى لقياه، ليصِل إلى مَن تغاضى عن الجميع ولا يعرف إلا هو فقط، ليصِل إلى مَن يراه الوحيد على هذه الأرض ولا أحد سواه.

****

أنتِ امرأة لا تُنجَب إلا كلّ مائة سنة، قد يقول البعض إن هذه مبالغة كبيرة، لا ليستْ مبالغة يا أصدقائي بل هي تفوق وصفي لها بكثير. وليتني أستطيع أن أنصفها وأعطيها حقها كما هي؛ لأنني لمْ أصادِف ولن أصادِف امرأة بهذا الشكل.. كلّ ما بها من حب، وحنان،

ولطف، ودلال، ورقّة، لا أحد يعلمه غيري. إن أحبّ أحدكم يوماً ما فلن يجد فتاة بتلك المواصفات التي توجد فيها.

لا أعرف إلى اليوم كيف يعيش مَن لمْ يحب، مَن لمْ يعشق! الحب هو تلك الأشياء التي لا أحد يعملها غير المُحِب. الحب هو هذا الوقت الذي أكتب فيه هذه الكلمات الثانية بعد منتصف الليل. الحب هو الأشياء غير المفهومة في نظر البعض ولكنها مفهومة وواضحة جداً بالنسبة لِمَن يحب. الحب هو أن تعجز عن التعبير ولو بكلمة واحدة رغم أن لديك ثمانية وعشرون حرفاً وتعجز جميعها عن التعبير عمّا بك.

الحب هو الأشياء التافهة، والغامضة، والعميقة، والمستحيلة، والمتناقضة.. التي لا أحد يعرفها أكثر منك.

****

عندما تظهر أمامي وأنظُرُ إليها كأنها كلّ الأشياء الجميلة التي تخطر في البال، وكأنك تنظر في السماء وأنت ملقىً على الأرض في ليلة اكتمال القمر وفي سماء صافيه مليئة بالنجوم، ما أجمله من منظر! وما أجملها من صدفة! وما أجملها من لحظه تلك!.. نعم إنها كذلك بل وأجمل من ذلك. إنها كلّ الأشياء الجميلة الموجودة في هذا الكون والتي قد تحلم بها يوماً.

على عكسي تماماً فهي كانت تحب المظهر بالنسبة لها ولِمَن تحب، ومنذ أن عرفتُ ذلك بدأتُ بفعل المستحيل لأظهرَ كما تُحِب: اشتريتُ بدلة جديدة، وقمتُ بتفصيل أخرى، واشتريت بنطالين جينز، وثلاثة شِمزان (قمصان)، وجزمة سوداء؛ من أجلها فقط رغم أني لا أحب المظاهر، ولكن من أجلها سأفعل المستحيلات؛ لأنها تستحق كلّ ذلك، وكلّ ذلك في حقها قليل.

بينما هي عرفتْ ما أُريد وما الذي لا أُريده كانت بطبيعتها، وأنا أحبها على ما هي عليه، وأيّ شيء كان يأتي منها كان بالنسبة لي أجمل ما أشاهده خلال اليوم رغم أنها بلباسها العادي

الذي ترتديه أي امرأة أخرى غير واقعة في الحب ولا تفكر فيه أصلاً.. فكيف بها إن أحبت! ماذا سترتدي في ذلك الوقت؟! ولكنني كنتُ معجباً بها لذلك.

فقط!! عندما نلتقي تكون امرأة ثانية بخلاف الأيام التي أراها فيها دائماً.

إلى اليوم لا أعرف لماذا، وأسأل نفسي: ما الذي جعلني معجباً بفتاة لا تهتمّ كثيراً بمظهرها الخارجي إلا أحياناً؟! لربما هو الحب، نعم أبصمُ لك بالعشر أنه الحب الذي ما إن يدخل قلبك فإنك لا تعرف ما هو الصح وما هو الغلط، كلّ ما تعرفه أن قلبك يحب شخصاً حدّ الجنون، بل حتى أكثر من نفسك.

وبالرغم من ذلك، عندما أشاهد بعض من النساء ممّن لا تهتمّ بمظهرها الخارجي أقول في نفسي: هذه ليست امرأة، لماذا لا ترتدي الملابس اللائقة بها كامرأة؟! لماذا لا تجري تغيّيراً في هيئتها كأن ترشّ عطراً ولو كان بسيطاً لكي تلفِتَ إليها الأنظار ولتكون مختلفة قليلاً كامرأة؟! لماذا؟! ولماذا؟!..

وتساءلتُ في نفسي: وما الفرق بينها وبين الرجل إن لمْ تتزيّن، تلبسُ الجديد، تلفِتُ النظر، تُغري الرجل عندما تمرُّ من أمامه لتكونَ امرأة حقيقية وليست امرأة عابرة فقط؟! بينما هي لمْ أقل عنها شيئاً؛ فقد أحببتُها بكلّ ما فيها: سيئاتها وحسناتها، إيجابيّاتها وسلبيّاتها. لا أعرف لماذا لمْ أعدّها كالنساء الأخريات! أهو الحب؟ ربما شيء أعظم من الحب.

لا أعرف ماذا يحلّ بي عندما أراها واقفة أو ماشية، مشهد عجزتُ عن وصفه حقاً. عندما تذهب بعد محادثة بسيطة تأخذ عقلي وقلبي معها يرافقانها أثناء طريقها، بينما أظلّ أنا وحيداً تائهاً بلا عقل يتخبّط هنا وهناك لا يعرف ما الذي يتوجّب عليه فعله.

ما أجمل حروف اللغة عندما تأتي منها! كأنها موسيقى لمْ يسمعها أكبر عاشقٍ للموسيقى منذ سنوات. عندما كانت تشاهدني أتحدّث مع أيّ زميلات في الكليّة في بعض الأمور التي تخصّ الدراسة كانت تنزعج كثيراً، كنتُ أرى ذلك الغضب والانزعاج على وجهِها، وما إن أراها حتى تبادرني بالابتسامة وكأن كلّ شيء على ما يرام، ولكنني أعرف ما الذي يزعجها. سألتُ

نفسي حينها: أهي الغيرة أم شيء أخر؟ ربما هي الغيرة؛ فهي لا تريد حتى أن يختلس أحدٌ النظر إليّ اختلاساً فكيف بمَن ينظر إليّ ويتحدّث معي! وخصوصاً أن من كنتُ أتحدّث معهنّ هنّ زميلاتها في نفس التخصّص.. فهي تريدني لها ولا تريد أحداً أن يشاركها ولو بنظرة مسروقة إليّ فكيف بكلام وابتسامة!

أتعلمون أمراً:

الغيرة أجمل ما في الحب، ولكن في حدود الحب والمعقول، أما إذا خرجتْ عن حدود الحب فقد تصبح مشكلة يصعب حلّها. أحترمُ المرأة التي تغار ولكن في حدود المعقول. وبصريح العبارة أقولها: إن لمْ توجد غيرة لا يوجد حب؛ فالغيرة أولى علامات الحب؛ فالغيرة تعبير عن الاهتمام، عن الحب، عن التعلّق.

عندما تشعر بوجود شخص في حياتك يغارُ عليك، ويبحث، ويخاف، ويسأل عنك؛ فأنت من المحظوظين في الحب والحياة أيضاً.

****

عندما تحب تتمنى أن يكون الناس عمياناً بينما أنت الوحيد الذي ترى؛ من أجل ألا يرى أحدٌ محبوبك. عندما تحب تتمنّى أن تكون حبيبتك سيئة في نظرهم؛ حتى لا ينظروا إليها أو يكلموها، بينما هي في نظرك أجمل ما في الكون. الحب يجعلك تعود إلى مرحلة الطفولة، ليس بإرادتك ولكن من خلال الأعمال التي تقوم بها عندما تكون مع محبوبتك، كأن تضحك على نفسك وأنت تعبُرُ وحيداً في شارع مكتظ بالناس، وعندما ينظر إليك بعضٌ منهم نظرة رحمة ويدعو لكَ بالشفاء معتقداً أنكَ مجنون، ولكنك في سعادة لا يعرفها إلا أنت. عندما نعمل كلّ تلك الأعمال لا نهتم بذلك، ولكن بعد خروجنا من تلك المواقف نضحك على أنفسنا كثيراً، ونقول: أمعقول أنني فعلتُ هكذا؟! مستحيل! لا شيء مستحيل. كلّ تصرّفاتنا في الحب لو راجعناها لضحكنا أياماً متواصلة وليس ساعات فقط. لا أحد يعي هذا الكلام إلا

من جرّب الحب، وربما هناك من جرّب ذلك بينما هو يقرأ الآن ويضحك كثيراً على نفسه، ويقول: صدقتَ؛ حدث معي كلّ ما قلتَه.

إنه الحب، لا شيء سواه يجعلك طفلاً، ويجعلك شاباً متيّماً عاشقاً، ويجعلك عاقلاً في نفس الوقت. الحب يجعلك شخصاً آخر غير الذي كُنْته من قبل.. قد تضحك وتبكي في آنٍ واحد. هي مشاعر لا تستطيع التحكّم بها، بل هي من تتحكّم بك. إن لمْ تتغيّر فأنت لستَ محباً. إن لمْ تتصرّف بغرابة شديدة إلى الحدّ الذي يتّهمك فيه الآخرون بالجنون فأنت لست بمحب. إن لمْ تضحك وأنت جالس وحدكَ كالمجنون.. وأنت ماشٍ في شارعٍ مكتظ بالأشخاص بدون سبب ما فأنت لست بمحب. إن لمْ تحزن بدون أيّ سبب يُذكر وعندما تذكر محبوبك تبتسمُ وتطيرُ فرحاً فأنت لست بمحب.

****

اقتربت الإجازة النصفيّة وستستمرّ شهراً كاملاً، فكّرتُ كيف سيكون الحال في غيابها! وكيف سأتحمّل غيابها كلّ تلك المدّة! كان الأسبوع الأخير من الدراسة يوم الوداع لكلينا ليودّع كلٌّ منا الآخر. أسبوع كامل من الوداع وكأنه غياب لسنة وليس لمدّة شهر واحد وربما أقل. ظللنا على هذا الحال حتى أتت اللحظة وهي يوم الوداع الحقيقي، وكان يوم أربعاء أو خميس لا أتذكّر ذلك تحديداً، كان آخر يوم لنا في الكليّة، إنها الإجازة التي تسبق الإجازة الصيفية، وهي إجازة ما قبل الامتحانات؛ لأن أيام الاختبارات لمْ نكن نلتقي فيها كما كنا نلتقي في الكليّة.

كانت لديّ محاضرتان في ذلك اليوم، بينما هي كان يومها مليئاً بالمحاضرات: ثلاث محاضرات متتالية. انتهيتُ من محاضرتيّ وانتظرتُها حتى انتهتْ من محاضراتها وخرجتْ من قاعة الدراسة، لقيتُها، نظر كلٌّ منا إلى الآخر نظرة غياب إلى بعد الإجازة، وكأنها آخر مرة سيرى كلٌّ منا الآخر وليست أسابيع فقط وربما أقل.

إنه الحب يفعل بكَ ما يريد وليس ما تريده أنت: تضحك، تحزن، تبكي بدون أيّ شعور بذلك. وفي تلك الأيام (أيام الإجازة) كنتُ أخصّص محادثة بيني وبينها رغم أنها في البال على مدى الأربع والعشرين ساعة؛ ولكنني كنتُ أخصّصها للحديث معها وكأنها موجودة أمامي وكلٌّ منا ينظر للآخر، أعرف أنه من عمل المجانين، أعِي ذلك، ولكن إن لمْ يكن الحب جنوناً فليس بحب. بعد الانتهاء من لقائي معها أبدأ بكتابة رسائل الغرام والحب لها، وكنتُ أُخبّئها إلى يوم لقائنا.

****

الحب دواء. الحب نعيم لِمَن يدخل عالمه، جحيم لِمَن يغادر عالمه أيضاً. الحب يجعلكَ إنساناً غير الذي كُنْته من قبل. الحب يحوّلك، من رجلٍ إلى إنسانٍ، من كارهٍ إلى مُحِبٍّ، من بخيلٍ إلى كريمٍ، من ساخطٍ إلى راضٍ.

الحب يعلّمك التفاؤل: تنامُ وناظريك إلى لقاء الغد مع محبوبك، تنامُ وتحلم باللقاء الذي سيكون أفضل من اللقاء السابق ولديك الكثير لتقوله لمحبوبتك، تنام وتتكلّم مع نفسك بل وتحفِّظها ماذا ستقول في الغد، ماذا أفعل، وما الذي عليّ ألا أفعله، وما الذي نقص عليّ في اللقاء السابق لأقوله في الغد، وماهي سلبيّات اللقاء السابق حتى أصحّحها في هذا اللقاء. لا يأس في الحب، لا كرُه، حب فقط. الحب حياة، نعم حياة: عندما تحب تعرف معنى الحياة بمعناها الصحيح وليس كما تعرفها من قبل. الحب يغيّرك إلى شخص آخر. عندما تحب تنسى ما كان بينك وبين الآخرين وتحب الجميع، ليس من أجلهم ولكن من أجل الحب. أسعد اللحظات والدقائق هي التي تمرّ عليك وأنتَ في حضرة من تحب، ذاك هو النعيم بحدّ ذاته. إذا لمْ تُحِب فأنتَ لستَ بخير أبداً ولستَ على قيد الحياة.. جرّب الحب وستعرف وتعِي كلّ ما قلتُ لك.

****

سألتُ خبيراً في الحب بعض الأسئلة:

- هل نستطيع أن نحب متى ما أردنا ذلك؟

قال لي:

- بكلّ تأكيد: لا.

قلتُ له:

- لماذا؟!

قال لي:

- الحب يأتينا فجأة، يباغتنا، يختطفنا، ينقلنا من عالمنا البائس إلى عالمه المليء بالسعادة والتفاؤل.

قلتُ له:

- هل نستطيع منع الحب عندما يأتينا فجأة؟

قال لي:

- لا نستطيع مقاومته حتى، ولو استطعنا ذلك لأجّلناه إلى أجل مسمى متى ما نكون جاهزين لذلك.

قلتُ له:

- هل يستطيع الواحد منّا أن يقول للحب إن هذا ليس الوقت المناسب لأحِب؟

قال لي:

- الحب لا يعطينا وقتاً لنتفاوض معه أو حتى يمنحنا خيارات أخرى.. فقط الخيار الذي يريده هو الذي يتمّ تطبيقه.. لا يعرف العواقب بعد ذلك، نحن مَن نتحمّل العواقب.

سألتُهُ:

- من تقصد بـ(نحن)؟!

قال لي:

- نحن معشر العشاق.

قلتُ له:

- هل الحب يختار الوقت الذي تريده أنتَ ليأتيك فيه؟

قال لي:

- لو كان لي الخيار في ذلك وأعطاني الحب ولو خمس دقائق فقط لاخترتُ تأجيله إلى حيث أريد، إلى حيث أستطيع العيش مع أفراحه وسعادته في البداية، وأحزانه وقهره في النهاية.

وأضاف:

- ليتنا نخرج من الحب مثلما ندخل إليه بدون أيّ مشاكل.. يأتينا فيملأُ حياتنا فرحاً وسعادة، ويذهب عنّا فيملأُ حياتنا جحيماً وبؤساً. تباً للحب عندما يدفعنا إلى البؤس والشقاء.

قلتُ له:

- أيحدث ما قلتَه؟!

قال لي:

- نعم.

لو يعلم العاشق خسائره عند خروجه من الحب لما فكّر بولوج عالم الحب. أعرف أنه لا يستطيع عمل ذلك ولكنه سيقاوم بكلّ تأكيد، أما النهاية فستكون مُحزنة له بشكل يفطر قلبه ويكسره فلا يمكن إصلاحه في الوقت القريب، ولربما يصِل به الحال إلى أن يكره الحب إلى الأبد.

الحب ليس القوة لتُظهرَ للآخرين بأنك مفتول العضلات قويّ البُنية لتضربَ الآخرين أمام تلك الفتاة أو تلك؛ لتُظهِر لها أنك قوي؛ فالمرأة لا تريد هذا.. المرأة تريد الحب فقط،

والاهتمام، وما دون ذلك فلا، وما أكثر الأغبياء الذين يقومون بتلك الأعمال التي -وعلى حدّ وصفهم- تلفِتُ نظر أيّ فتاة!

الحب ليس بالاستعراض أمام الفتاة لتثيرها أو تلفت نظرها بتلك الأعمال (الغبيّة)، وهذا أقل وصف لمثل هكذا مواقف. الحب ليس مجرّد كلمة فقط، الحب أكبر وأعمق من ذلك بكثير. الحب ليس أن تعلَق فتاة بك وبمجرّد معرفتك لها بأنها تحبك تتركها وتذهب بدون أيّ مقدمات أو حتى تقديم مبرّرات لذلك.. بل هذه هي النذالة بحدّ ذاتها. الحب أن تحب تلك الفتاة ولا تنظر لأيّ فتاة أخرى مهما كانت المغريات. الحب ليس أن تكون لديك مجموعة من النساء أو أن تُغري الكثير منهنّ للحاق بك كما تتصوّر في ذهنك وجعلهنّ يتعلّقنَ بك كما تريد.

الحب هو أن تحب مرة واحدة امرأة واحدة، ثم تغريها، وتدلّلها، وتغمرها بمشاعركَ اللطيفة، وتعطيها أكثر ممّا تأخذ منها؛ حتى تقع في حبك، فإن وقعتْ في حبك فلن تتركَكَ أبداً.

بعض الرجال لا يستحقون حتى كلمة واحدة من أيّ فتاة.. فكيف بأن تحب أحدهم فتاة ما!، وجمع القدر بين أحدهم وبين فتاة أخرى ووصل بهم الأمر إلى الزواج.. كيف سيكون الوضع في ذلك الوقت! أُشفِقُ على الفتيات اللواتي يقعن ضحايا في ارتباطهنّ بأمثال هؤلاء.

كلّما كنتُ أذهب هنا أو هناك أرى نظرات وضحكات تذكّرني بها رغم أنها لمْ تغِب عن تفكيري أبداً، ولو بدأتُ بنسيانها -ولو حتى قليلاً- ذكّرتني بها أشياء أخرى كأغنية للفنان (حمود السّمه) أو (صلاح الأخفش) أسمعها وأنا ذاهب على متن الباص إلى مكان ما أو آتٍ منه، أو بيت من الشعر أراه حينما أفتح هاتفي الجوّال في الصباح الباكر أو المساء، أو حين أشاهد في وقت الفراغ على التلفاز جزءاً من حلقة مسلسل أو فيلم رومانسي، أو حين أستمِعُ إلى أغنية قديمة بينما أتناولُ وجبة الإفطار، أو ربما ذكّرتْني بها طريق كانت لنا يوماً من الأيام ذكريات فيها، أو كرسي كان يحتضننا نحن الاثنين.

عندما نحب يتعلّق كلّ شيء بِمَن نحب: سعادتنا، فرحنا، حتى حزننا وكآبتنا، بإمكان الحب أن يفعل بنا ما يشاء: بإمكانه إسعادنا، وبإمكانه أن يحزننا. بيده القرار وحده.

ولكي أعرف الحب من أكثر من شخص سألتُ صديقاً لي ذات يوم:

- ما هو الحب؟

قال لي:

- الحب: التقاءُ روحَي شخصين معاً من دون أن يكون كلٌ منهما بجانب الآخر. الحب هو أقدس شيء في الحياة. الحب: الحياة بحدّ ذاتها.

وسألتُهُ:

- هل يوجد الحب فعلاً؟

(سألتُهُ ذلك رغم أني أعرف أنه يوجد أكثر من حب).

قال لي:

- نعم. وأضاف:

- ولكن لا يوجد من يقدّره فأنت تعيش في مجتمع -للأسف- لا يعترِف بالحب.

قلتُ له:

- لماذا؟!

قال لي:

- قد تحب وتتعلّق وتفعل المستحيلات من أجل الحب ولا تكون النهاية كما تريد أنتَ وحسب ما خطّطتَ له.

قلتُ له:

- أمعقول ذلك؟!

قال لي:

- نعم.

قلتُ له:

- كيف تعرف ذلك؟

تنهّد تنهيدة طويلة من أعماقه، ثم قال:

- كان لي تجربة في هذا الخصوص.

قلتُ له:

- أيّ تجربة تقصـ...؟!

قال لي:

- تجربة الحب.

قلتُ له:

- كيف ذلك؟

قال لي:

- إنها قصة طويلة.

قلتُ له:

- أنا موجود وليس هناك شيء آخر لأفعله سوى الاستماع إليك.

كان متردّداً في أن يخبرني قصّته، والتي على ما يبدو أنها قد أتعبتْه كثيراً وفطرتْ قلبه.

قال لي:

- أحببتُ فتاة في قريتنا حباً لمْ يحبه أحدٌ من قبل ولا أحد سيحبه من بعد.. فتنتْني بجمالها، بعينيها البنيّتين، ورمشِها الأزرق، ومبسمها الفاتح كأنه قطعة من برتقالة، كلّ تلك كانت مغرياتها للتعلّق بها، ولكنها نسيتْ أنها لمْ تعُد مغرية فحسب؛ بل أصبحتْ مغناطيساً جذبني إليها؛ فصِرتُ أُفكّر فيها طيلة الوقت لا يفارقني خيالها. لقد جعلتْ حياتي فوضى، ولكنها فوضى على طريقتها هيَ.

سألتُهُ:

- وماذا بعد؟

قال لي:

- كلّ يوم يزداد تعلّقي بها. مضتِ الأيام والشهور، وكانت ما تزال تدرس في المرحلة الثانوية في سنتها الأخيرة. كانت تحبني وأنا أحبها..

عندما أشتاق إليها أذهب إليها، إلى المدرسة التي تدرس فيها؛ لألقاها أو حتى ألقي نظرة عليها ومن ثم أذهب.. كنتُ أكتفي برؤيتِها فقط.. كنتُ أنتظرُ في حرارة الشمس وقت الظهيرة فقط من أجل رؤيتها، وكانت المدرسة ليست بعيدة عن القرية، كانت تتوسّط ثلاث قرى: قريتنا وقريتين مجاورَتين لنا. عندما كنتُ أراها وهي خارجة من الفصل الذي تدرس فيه أشعُرُ كما لو أنني فتحتُ العالم، شعور لا يوصف أبداً رغم ما بي من تعب والعرق يتصبّبُ من جسمي من حرارة الشمس الملتهبة في أوج قوتها في ذروة الظهيرة.. بمجرّد أن أراها تعود لي أنفاسي من جديد وتعود الروح إلى الجسد، وبمجرّد أن أراها أذهب من ذلك المكان وأعود أدراجي إلى البيت الذي كان قريباً من المدرسة. أحياناً تعرف أنني أتيتُ، وأحياناً أخرى لا تعرف.

عندما تمرُّ من تحت بيتنا -وكان يقع فوق الطريق المؤدّية إلى بيتها- كنتُ أنظُرُ إليها من أوّل ما تبدأ الظهور من التبّة أو المرتفع الذي يوجد قبل بيتنا حتى تصِل إلى بيتها الذي كان يبعد عن بيتنا بعض الشيء، بعدها أُقنع نفسي أنها قد ذهبتْ بالفعل، وكأنني أحرسُها بعينيّ من أيّ شيء ينظُرُ إليها.. وبعد أن أطمئن إلى أنها وصلتْ إلى البيت أذهبُ إلى عملي والسّعادة تغمرني.

مرّت السنين وبدأتُ أفكّر بالزواج منها، استشرتُ الأهل فوافقوا على زواجي منها؛ ففرِحتُ كثيراً رغم أنني لمْ أكن أتوقّع أن يوافقوا على زواجي منها.

بدأتُ بالتحضير للزواج وقمتُ بشراء الأدوات اللازمة لذلك. يقترب موعدُ الزواج يوماً بعد آخر إذْ حدّدناه بعد عشرة أيام، وكلّ يوم أُحضِرُ الأشياء اللازمة للعرس الذي سأجعله عرساً لمْ يسمع به أحدٌ من قبل. وبينما تمضي الأيام ويقترب يوم الفرحة الكبرى إذْ أتفاجأ بردٍّ لمْ أكن أتوقّعه جعلني متسمّراً في مكاني ولا أستطيع الحركة.. إنه الردّ الذي لمْ أكُن أنتظره: إنه الرّفض لزواجي من تلك الفتاة والذي أتى من والدها. لا أعرف ما هي الأسباب! وما هو الدافع لذلك! ولماذا رفضني!.. ذهبتُ إليه لأسمعَ منه أجوبة عن أسئلتي ولكنني لمْ ألقَ لها جواباً.. حاولتُ معه لأعرف أيّ شيء ولكنّي لمْ أصِل إلى نتيجة.

سألتُهُ حينها:

- أهيَ لا تحبني؟.. فإن كان كذلك فأعِدكَ أنني سوف أذهب ولن أعود أبداً بعد ذلك.

قال:

- لا.. هذا لا يهم.

قلتُ له:

- وما المهم؟

قال لي:

- إنها لمْ تعُد لك؛ فلتصرِف النظر عنها..

قلتُ له:

- لماذا؟

ولكنه لمْ يُجبني..

قاطعتُ صديقي بالقول:

- وماذا كان ردّ مَن كانتْ ستكون زوجة لك؟

قال لي:

- هي متفاجئة أكثر مني، هي لا تعرف ما الذي حدث، كلّ ما تعرفه هو ما أعرفُهُ أنا.

سألتُهُ:

- هل كانتْ تحبك كما تحــ...

قاطعني وقال لي:

- ما دخل هذا بذاك؟! هي تحبني أكثر ممّا أُحبها..

وسألني:

- لماذا تسأل؟

قلتُ له:

- ربما غيّرَتْ رأيها ولمْ تعُد تريدك.

قال لي:

- مستحيل! كلّ هذا حدث بسبب أن والدها لا يريد لي الزواج منها، وإلا لما رفض والدها ذلك.

قلتُ له:

- ماذا فعلتَ بعد ذلك؟

قال لي:

- لمْ أستسلم بسهولة.

قلتُ له:

- كيف؟

قال لي:

- حاولتُ بكلّ ما أستطيع أن أثني والدها عن قراره ولكنه أصرّ على ذلك، استعنتُ بأشخاص للذهاب إليه لعلّه يغيّر قراره ولكن كلّ تلك المحاولات

باءت بالفشل، حتى الأسباب التي دفعته لذلك لمْ نعرفها، استمررتُ بالمحاولة معه أسبوعاً ومع ذلك لمْ أنجح، بعدها تركتُهُ ولمْ أعُد إلى بيته أبداً. حزنتُ عليها كثيراً، وفي كلّ مكان أذهب إليه أتذكّرها، جميع الأماكن تذكّرني بها: الطرقات، المدرسة، الفصول الدراسيّة التي كنا ذات يوم ندرُسُ فيها معاً.

قلتُ له:

- لا تحزن يا صديقي؛ هناك الكثير من أمثالك ممّن يقِف أولياء الأمور في طريقهم لتحقيق أحلامهم، لستَ الأوّل ولن تكون الأخير.

****

هناك الكثير من العقول أمثال والد الفتاة تلك، مهما فعلتَ وصنعتَ لا يرونَ إلا أنفسهم، وأنهم دائماً على حق بينما يرَون الآخرين على خطأ، وهنا تكمُنُ المشكلة في مجتمعنا: الجميع لا يرى إلا نفسه، وعندما تأتي إليه -حتى وإن كنتَ على حق- لا يستمِع لك أبداً.. هو الصحيح دائماً حتى وإن كنتَ على حق وهو على خطأ.

قد يخطئ الإنسان، والإنسان ليس معصوماً من الخطأ، والإنسان العاقل والمتفهّم ما إن تراجعه أو تشرح له الموقف الصحيح من وجهة نظرك قد يأخذ بوجهة نظرك ويعمل بها، بينما مثل هؤلاء فلا، مثل هؤلاء لا أعرف لماذا يضيعون مستقبل بناتهم رغم أنه لا توجد مشكلة في نظري ما دام الحب موجوداً! أين المشكلة؟! أهمّ ما في الأمر هو الحب، وثاني شيء أن كلّ واحد منهما متقبلٌ للآخر؛ فالأَولى من وجهة نظري هو الأهم؛ فإن وُجِد فكلّ شيء على ما يرام، وإن لم يوجد الحب فهذا شيء آخر.

لا أعرف أين تكمن المشكلة في هكذا مواقف، ليس الحب من طرفها أو من طرفه، بل أتى من كليهما. كلّ منهما يحب الآخر، وأتى الحرمان والمنع من والد الفتاة، لقد منع قلبَيْن من أن يلتقيا وكسرهما وفطرهما معاً، أيّ قلب يفعل ذلك! أيّ آباءٍ هؤلاء الذين لا يحبون لبناتهم الخير والسعادة! طالما أن الولد متزن وصالح، ويحب الفتاة وهي تحبه، وميسور الحال،

ويستطيع الإنفاق على ابنتك- لِمَ لا تُعطِه ابنتكَ وأنت واثق منه وتعرفه جيّداً؟! لِمَ تمنع شيئاً أمر الله به من فوق سبع سماوات؟! في حالة واحدة فقط أتّفق معك وهي: أن يكون الشاب لا يناسب ابنتك، أو أن البنت لا تحبه وهي مَن رفضته.. هنا من حقك أن ترفضه، وأنا معك في هكذا قرار؛ فهنا مبرّرك يمكن فهمه وتقبّله ويصبح مقبولاً، أما غير ذلك فلا.

****

وبينما انهمكتُ لأعاتبَ مجتمعنا على سلبيّة يعاني منها نسيتُ صديقي الذي كان يجلسُ إلى جواري يستمعُ لما أقوله، ولا أعرف حقاً هل كان يستمع لي أم لا، ربما زاد همه وحزنه على ذلك، وبعد كلّ هذا عدتُ إليه وهو ما يزال مستغرقاً في تفكيره، سارحاً في خياله.. ربما كلٌّ منا لمْ يكن يشعر بالآخر إلى جواره..

قاطعتُ تفكيره بالقول:

- ما الذي حلّ بحبيبتكَ التي أحببتها؟

قال لي:

- لا أعرف..

قلتُ له:

- ألمْ تسأل عنها؟!

قال لي:

- لمْ أعرِف عنها شيئاً منذ خروجي من القرية.. انقطعت الأخبار بيني وبينها ولمْ يعُد أحدٌ يعرف عن الآخر شيئاً.

قلتُ له:

- لماذا لمْ تسألْ أنتَ عنها؟!

قال لي:

- ولماذا أسأل؟! من أجل تجديد الأحزان وإعادة التفكير بها بعد أن كدتُ أنسى شيئاً فشيئاً!.. وأضاف:

- لماذا أسأل فأنا أعرف أنها لمْ تعُد لي.

قلتُ له:

- ولا حتى خبر واحد أتاك عنها من هنا أو هناك؟!

قال لي:

- بعد سنة من فراقنا لبعضنا وخروجي من القرية أخبرني أحدهم ببعض ما حصل بعد مغادرتي القرية، وكان يعرف ما كان بيني أنا وهي من حب، ويعرف أيضاً أن أباها رفض زواجنا في آخر لحظة..

قلتُ له:

- ماذا قال لك؟

قال:

- قال لي: لقد تزوّجَتْ.

سألتُ صديقي:

- إلى أين؟

قال لي:

- إلى القرية المجاورة.

قلتُ له:

- وماذا كانت ردّة فعلك عندما سمعت ذلك الخبر؟

قال لي:

- لا شيء.. ماذا بوسعي أن أفعل! لقد انتهى كلّ شيء وأصبحتْ تعيش حياة أخرى، ومنذ ذلك الوقت نسيتُها ولمْ أعُد حتى أفكّر فيها. قد أكذب عليك إن

قلتُ لكَ بأني نسيتُها كليّاً، ولكنني حاولتُ لعلّي أرتاح قليلاً من التفكير بها، وهي أكبر خدمة أقدّمها لنفسي.. وبدأتُ أتعافى يوماً بعد يوم من تلك الحادثة التي فطرتْ قلبي وكسرتْه وأنهت الحب الموجود فيه.

قلتُ له:

- ربما حبك لها لمْ يكن اعتيادياً ولمْ يحبه أحدٌ من قبل، حب صادق ومخلص في نفس الوقت. إنه الحب الحقيقي الذي يجعلنا أشخاصاً آخرين، أشخاصاً مختلفين بحبنا لمن أحببنا؛ ولذلك تحدث لنا كلّ تلك الأشياء التي لمْ نتوقعها.

إن لمْ تحب الحياة وكلّ شيء فيها، فهذا ليس بحب، إن لمْ تحب الطرقات والشوارع الرئيسية والفرعية والأرصفة التي مشتْ وتمشي عليها حبيبتكَ، فهذا ليس بحب.

إن لمْ تحب الأشجار التي كانت تمشي من جانبها وتستظلّ تحتها من حرارة الشمس في وقت الظهيرة، فهذا ليس بحب.

إن لمْ تحب الكتب التي تقرأها، والكتب التي درستْها، والقصص والروايات الجميلة التي استمتعتْ بقراءتها، فهذا ليس بحب.

إن لمْ تحب كتاباتها عن... لا أعرف، وخطّها المتعرّج، ورسوماتها التي لا تفهم منها شيئاً سوى اسمها المكتوب في أقصى يسار ورقة الرسم، فهذا ليس بحب.

إن لمْ تحب كلامها غير المفهوم وماذا تقصد بذلك، إضافة إلى صوتها المتوسّط عند اللا شيء، وصوتها المنخفض عند وجود شيء ما، فهذا ليس بحب.

عندما لا تحب الموسيقى والأغاني التي تحبها وتستمتع بالاستماع إليها، فهذا ليس بحب.

عندما لا تحب المسلسلات العربية والأفلام الاجنبيّة التي تشاهدها يومياً، فهذا ليس بحب.

عندما لا تحب نغمتها الموجودة على هاتفها والمخصّصة لاتصالك بها فقط، فهذا ليس بحب.

عندما لا تحب القاعة التي تدرس فيها، ولا الكرسي الذي تجلس عليه، ولا السبورة التي تكتب عليها، ولا حتى القلم الذي تُمسكه بأصابعها لتكتب، فهذا ليس بحب.

عندما لا تحب السّاعات والدقائق التي تنتظر فيها كي تراها وتذهب.. فقط لتراها وليس لشيء آخر، فهذا ليس بحب.

عندما لا تحب الأمكنة التي تذهب إليها، فهذا ليس بحب.

الحب الاهتمام الدائم حتى وإن كان مَن تحبه قربك،

والسؤال عند الغياب،

والمسامحة عند الخطأ،

والفرحة عند اللقاء،

والشوق قبل اللقاء،

والدعاء بعد اللقاء..

الحب ليس بالبساطة التي تتصوّرها، وليس كما تصوّرها المسلسلات أو الأفلام، بل هو عميق وعميق جداً إلى الحد الذي يجعلك لا تصدق. الحب هو الشيء الوحيد الذي ما إن يدخل قلبك فإنك لا تستطيع إخراجه أو تغييره ليلائمك.. يأتي كما يشاء، ثم يستقرّ، وكلّ ما عليك فعله هو مسايرته وتقبّله والتعايش معه.

الحب هو الشيء الوحيد الذي كتب عنه الأدباء والشعراء والفنانون والكُتّاب ما يفوق توقعك ولا يسعكَ قراءته. لو كان للحب كتيِّب إرشادات لقرأتُهُ مئات المرات، ولكن للأسف الشديد لا يوجد. الحب ليس محصوراً بطريقة معينة؛ فكلّ شخص يحب بطريقته الخاصّة، وكلّ شخص لديه آلياته الخاصّة للحب، وتختلف الطرق والأساليب بشأن ذلك.

الحب: الزائر الذي لا يطرق الباب بل يدخل ويكسر الباب ويرميه إلى بعيد حتى لا تستطيع إغلاقه من جديد، بل ويحتلّ المكان بأكمله.. لا أحد يستطيع مواجهته أو مقاومته، وفي النهاية عليك الاستسلام له.

سألتُ نفسي حينها: وماذا سأفعل إن أتاني الحب بدون استعداد له؟ ليت وكانت له علامات حتى أدرك في أي وقت سيأتيني. أتى إليَّ ولمْ أستطِع المقاومة، استسلمتُ له حينها، كان لا بدّ لي من المقاومة، من مراوغته، من الهروب من مكان لآخر لعلّه لا يلحقني ولكني لمْ أستطِع. حاولتُ التهرّب والتخفّي لعلّه ينسحِب ويتعب، ولكنه ظلّ يلحقني أينما ذهبت، في النهاية أعلنتُ استسلامي أمامه وهو الذي لا يعرف الهزيمة.

****

وفي يوم جميل جداً، وسط أجواء ممطرة، وجو رومانسي ومنعش، مع تنشّق رائحة المطر التي تُنعِش النفس وتريح الجسد وكانت ما تزال هناك قطرات بسيطة من المطر- التقينا في موعد تمّ التنسيق له مسبقاً. كان آخر يوم من أيام الاختبارات النهائية للسنة الدراسيّة الثالثة، كانت الساعة الرابعة عصراً بعد أن خرجنا من قاعات الامتحان، وبالمناسبة كان اختباراً سهلاً جداً لكلينا، لا أتذكّر ماذا كان اسم المادة، ولكني أتذكّر التفاصيل الدقيقة التي قضيناها معاً في ذلك اليوم.

إنه يوم وداع لكلينا، ويوم احتفال بمناسبة انتهائنا من السنة الدراسيّة الثالثة ووصولنا إلى السنة الأخيرة من الدراسة، وهي السنة الرابعة. كانت قاعة اختبارها بالقرب من قاعتنا. بعد الانتهاء من الاختبار انتظر كلٌّ منا الآخر. كانتْ قد خرجتْ قبلي بعشر دقائق. كانت طيلة الاختبار على البال، وجعلتُ كلّ تركيزي عليها وعلى لقائنا اليوم. استطعتُ أن أسيطرَ على نفسي، وكان من أفضل الاختبارات رغم أن غالبية تفكيري لمْ يكُن في الاختبار بل فيها هي. ربما الحب يشعرك بأشياء لمْ تتخيلها، يلهمك أشياء يجعلك تشعر بالسعادة والفرح، لا شيء غير الحب يفعل كلّ ذلك. انتهيتُ من الاختبار وخرجتُ من القاعة، وكانتْ منتظِرة في المقعد المخصص لكلينا أمام بوابة الكليّة.. كلّ واحد منا يعرف إذا خرج قبل الآخر أين ينتظر، إنه الموقع المفضّل والمقعد الملائم لكلينا. بمجرّد أن خرجتُ من باب الكليّة نظرتُ إلى

ذلك المكان فوجدتُها قد سبقتْني إليه، وحين وصلتُ إليها، وقبل أن أجلس، بادرتُها بالسؤال:

- منذ متى وأنتِ هنا؟..

قالتْ لي:

- ليس طويلاً.. منذ عشر دقائق فقط.

جلستُ بعدما أجابتني..

سألتُها -وأنا أعرف الإجابة مسبقاً، وكما قلتُ لكم بأنها ذكيّة-:

- كيف كان الاختبار؟

قالتْ لي:

- بسيط.

ومن ثم حوّلت السؤال إليّ وسألتْني:

- كيف كان الاختبار معك؟

قلتُ لها:

- لعلّ دكتور المادة عرف أن اليوم سيكون جميلاً فوضع اختباراً بسيطاً.. وكأنه لا يريد أن يعكّر صفو هذا اليوم الجميل؛ فأراد إكرامنا باختبار سهل.

بعد أن انتهيتُ نظرتُ إلى عينيها ، عيناها تحمل كمية كبيرة من الفرح لو وزّعتْها على العالم لكفتْهم، أطلتُ النظر لأتأمل عيوناً تسْحرُ من ينظر إليها وكأنها المرة الأولى التي أرى فيها عينيها..

قطعتْ شرودي بالقول:

- ماذا ستفعل في الإجازة؟

قلتُ لها:

- لا أعرف.. ربما سأكتب عنكِ.

قالتْ لي:

- وماذا ستكتب؟

قلتُ لها:

- لا أعرف..

وفي ذلك المساء كتبتُ لها بعضَ الرسائل:

الرسالة الأولى كانت لعينيها؛ لأصِف لها جمالها الذي تجهله، والرسالة الثانية كانت لشفتيها، والرسالة الثالثة كانت لابتسامتها الذهبيّة، والرسالة الرابعة كانت لقامتها، والرسالة الخامسة كانت لخطواتها، والرسالة السادسة كانت لها..

لمْ أُرِد أن أجعلها رسالة واحدة بل خصّصتُ لكلّ شيء فيها رسالة؛ لعلّها تتيقّن بأني أعرفها أكثر من نفسها.

والرسائل وإن كانت مكتوبة من القلب إلا أنها لا تستطيع توصيل كلّ ما نود قوله؛ فما يزال في القلب شيء لا نستطيع التعبير عنه، وهذا هو حال المحبين.. مهما فعلوا لا يستطيعون التعبير عن كلّ ما يجول في عقولهم وقلوبهم، تظلّ كلمات لا تستطيع الخروج، لا أعرف ما الذي يمنعها، مهما عملنا لا نستطيع. أعتقد أن هذا الشعور قد راودكم يوماً: عندما تودّون كتابة شيء ما أو حتى قوله لمن تحبّون، وما إن تبدأوا في الكتابة حتى تجدوا صعوبة في ذلك. يظلّ هناك شيء لا نستطيع التعبير عنه مهما تفننّا وأبدعنا في الكتابة.

أردتُ حينها أن أتمعّن في النظر إليها وهي في أشدّ حالاتها فرحاً، أردتُ حينها أن تتوقّف عقاربُ الساعة ولو لنصف يوم؛ لأنظر إليها ولا أفارقها وهي مبتسمة بذاك الوجه البشوش الذي لو رآه مجنونٌ لعادَ إليه عقله. ما أجملها من ابتسامة لمْ أرَ مثلها في حياتي! ابتسامة تعود بكَ إلى الوراء خمس سنوات.

ما أجمل أن ترى شخصاً يبتسم! والأجمل أن تكون أنت سبب سعادته، وخاصةً عندما يكون من تحبه.. ما أجمله من شعور حينها!

أردتُ حينها أن يذهب الجميع وأظلّ أنا وهي فقط، لا نريد أحداً أن يزعجنا، أو يعكّر الجو بأيّ كلمة، وحدنا فقط، ولكن السّاحة في ذلك الوقت كانت مليئة بالطلاب فلمْ يستطِع كلٌّ واحدٍ منا التركيز مع الآخر. جمال العالم لا يوازي نصف جمالها، إنها حوتْ كلّ شيء، جعلتْ كلّ شيء لها، لا تريد أحداً أن يشاركها إياه. كلّ شيء كان يتميّز بها، جمالها فريد لمْ أشاهد مثله من قبل، لمْ أنظر يوماً إلى عينين بذلك الجمال، شفتاها كأنهما قطعة من العسل البلديّ ذي الشهد الأبيض، قامتها فُصّلتْ لها فقط.

تمنّيتُ ذاك الوقت لو يتوقّف الزمن يوماً كاملاً لأظلّ أنظر إليها باستمرار ولا أملُّ من ذلك، لا ملل من النظر إلى عيون فتنتْك، جعلتْك أسيراً لها تقضي الساعات والساعات وأنت تنظُرُ إليها. إنه وقت اللقاء الذي يتمنّاه أيّ محب من محبوبته، وقت اللقاء بين قلبَيْن، وقت اللقاء بين عاشقَيْن، وقت اللقاء بين محبَّيْن، وقت اللقاء الذي يجمع بين روحَين بجسد واحد. عندما رأيتُها بتلك الفرحة، وذلك الجمال الذي لمْ يظهر إلا ذلك اليوم، وهي وحدها تعرف من أين أتتْ به، والابتسامة مشرقة على وجهها- قلتُ في نفسي: ربما هي الفتاة التي ستكون زوجة لي. كم كانتْ جميلة ذلك اليوم! لم أبدِ اهتماماً بها كما فعلتُ ذلك اليوم، أشعرتُها بوجودها، بأهميتها لديّ، بجمالها الذي كانت تخفيه عني، ومَن لا يريد الجمال؟! ومَن لا يريد الاهتمام؟!؛ فطبيعة النفس البشرية تُحِب من يدلّلها، من يهتمّ بها، من يُشعرها بوجودها، بأهميتها لديه، بقربها منه، وتنفر ممّن لا يهتمّ ولا يسأل.. جميع البشر هكذا سواء كانوا رجالاً أو نساء، ومن غير المنطقي أن يقول البعض إن المرأة تحب الاهتمام أكثر من الرجال، قد يكون صحيحاً ولكن من وجهة نظره هو فقط، قد يختلف ذلك من شخص لآخر، ولكن - بشكل عام- فالجميع رجالاً ونساءً يحبون مَن يهتمّ بهم، كلّ إنسان على وجه الأرض يريد شخصاً يهتمّ به، ليس شرطاً أن تكون امرأة.. قد يكون صديقاً وفيّاً مخلصاً صادقاً معك وهذا يكفي؛ فالاهتمام نصف الحب إن لمْ يكن كلّه.

قلتُ لها:

- ألا يكفيكِ ما يحلّ بي يومياً عندما أراكِ؟!، ماذا تريدين أكثر من ذلك؟!

قالتْ لي:

- أريد أن تراني كلّ شيء..

قلتُ لها:

- ومن قال غير ذلك؟!.. فأنتِ كلّ شيء، وكلّ شيء أنتِ.. فأنا مجنونٌ بكِ منذ أن رأيتكِ أوّل يوم ومنذ أوّل لقاء جمعنا.

ثم قالتْ لي:

- أنتَ لي.. لا أريد أن يراك أحد كما أراك أنا.

قلتُ لها:

- لا تخافي من ذلك؛ لا توجد نساء في هذا الكوكب غيركِ أنتِ فكيف أحب شيئاً ليس موجوداً؟! وإن وُجِدنَ فجميعهنّ نساء، بينما أنتِ الأنثى الوحيدة.

فتاة متفرّدة بحبها، متفرّدة بابتسامتها، متفرّدة بنظراتها، متفرّدة بقامتها، متفرّدة بخطواتها، متفرّدة بكلامها، متفرّدة بمعاملتها، متفرّدة بلباسها، متفرّدة بشخصيّتها، متفرّدة بكلّ شيء فيها.. كلّ شيء فيها حصريٌّ بها لا أحد ينازعها عليه.. ليستْ كالأخريات يقلدْنَ كلّ شيء بل كانت بصماتها في كلّ شيء.

«ما أجمل أن تنام وشخصٌ تحبه على بالك! وما أجمل أن يقول لك كلاماً طالما أحببتَ سماعه وجاء اليوم الذي تسمعه فيه!» ذلك ما أخبرتْني به عندما التقينا في اليوم التالي.

ما أجمل أن تحب بصدق وإخلاص! ما أجمل أن تهدي حبك لفتاة تبادلك نفس الحب ونفس الشعور ويكون الحب هو العامل المشترك بينكما!

الحب حالة من اللا شعور، عندما تحب لا تشعر بشيء إلا بسلام في قلبك، تشعر بسعادة وفرح عميقَين. الحب الشيء الوحيد الذي لا يمكن التنبؤ به ولا ما سيحدث معه، فقط عليك الانتظار وستعرف كلّ شيء.

حين أعجز عن الكتابة باللغة المتعارف عليها بين الجميع سأكتُبُ لكِ بلغة أخرى أفهمها أنا وانتِ فقط، لغة نوجِدها فيما بيننا حتى تكون نقطة وصْل إذا أراد أيّ منا الكتابة للآخر، لغة لا أحد يفهمها -لا كتابياً، ولا شفوياً، ولا حتى نطقاً- سوايَ أنا وأنتِ فقط، لغة مشفّرة بترميز عالٍ من الحب والعشق، رمز قفلها الابتسامة، وفتح قفلها... أنتِ تعرفين ذلك.. لا أريد للآخرين أن يعرفوا رمز فتح قفلها، وإن حاولوا اختراقها فأنا واثق تماماً بأنهم لن يستطيعوا.

لا أعرف ماذا يحلّ عندما أراها مارّة من أمامي! كأن كلّ شيء يتوقّف في الجوار، فقط هي موجودة، لا أرى أحداً سواها مهما كان الجمع الموجود في ذلك المكان، ومهما كان المكان مزدحماً ومليئاً بالآخرين، أراها هي فقط، أنظُرُ يميناً وشمالاً فأراها هي فقط، شرقاً وغرباً فأراها هي فقط، وكأنها تظهر لي على هيئة أوهام وتخيّلات في جميع الأماكن.. تسيطرُ على المكان وتتحكّمُ به، كأنها مقسّمة إلى شخصيّات عديدة في كلّ زاوية تراها ولكنها في الحقيقة هي.

أنا ممتنٌ للغة العربية؛ لأنها أوجدتْ الحروف الخمسة من اسمكِ، ما أجمل حروف اللغة التي كوّنتْ اسمكِ! ما أجمل اسمكِ عندما أراه في ورقة أو ملف أو كتاب أو أشاهده على شاشة التلفاز أو اللابتوب! أو حين ينطقه أحدٌ ما ولا يعرف أن هناك شخص يحب هذا الاسم! أو حين تنادي فتاة صديقتها التي تملك نفس اسمكِ! اسمكِ ليس أقل من ابتسامتك ولا عيونك ولا مبسمك؛ فجميعهم فُتِنتُ بهم، بل كلّ ما فيكِ جميل، كلّ ما فيكِ يفتِنُ النظر، كلّ ما فيكِ يرقُصُ له القلبُ حباً وطرباً. ما أجمل نطق حروف اسمكِ! وما أجمل كتابتها على

الورق وعلى راحة اليد!، أشكر أمّكِ؛ لأنها أسمتكِ بهذا الاسم الذي أُحبه بالمناسبة، ولا أعرف تحديداً من أسماكِ بهذا: والدكِ أمْ والدتكِ.. لا يهمّ ذلك، المهم أني أحببته.

عندما أكتبُ اسمها تفرحُ الورقة التي أكتب عليها وتتباهى أمام الأوراق الأخرى وتتراقص طرباً وفرحاً بأن اسم ... كُتِب عليها، وتحفظ الاسم من أيّ خدش أو غبار يعلوه، وتقوم بالعناية به يومياً؛ حتى لا يشعر بأن لا أحد يعتني به. أما القلم فلديه قصة أخرى: إذْ يتراقصُ طرباً وفرحاً حين توكل إليه مهمّة كتابة اسمها؛ ليقضي خمس دقائق وهو يكتب الاسم بكلّ هدوء ويُسر وتمعّن وببطء.. بينما في الواقع لا يستغرق عشر ثوانٍ فقط، وليس هذا فقط بل يتباهى أمام أقرانه بأنه هو من كتب اسمها، بل والمصيبة حدوث مشادّة بالكلام بينه وبين الأقلام الأخرى؛ فكلّ واحد منهم كان يريد أن أكتب به؛ ما اضطرّني إلى فكّ النزاع الدائر بينهم بوعدهم أن في كلّ مرة سيتولّى الأمر قلمٌ آخر غير الذي كتبتُ به المرة السابقة.

سألتُ زميلاً لي في الجامعة:

- في نظرك: ما الذي يُعجب الفتاة في أيّ شاب؟

قال لي:

- لا أعرف.

سألتُهُ بطريقة أخرى:

- ما الذي يجعل الفتاة تتعلّق بشاب؟

قال لي:

- يختلف الأمر من فتاة إلى أخرى.

قلتُ له:

- كيف ؟

قال لي:

- بعضهنّ يرغبنَ بالمال؛ ولذا تتزوّج الشاب من أجل ماله رغم أنها قد لا تكون تحبّه، وإنما من أجل ماله فقط، وهذا تعلّق وحب فاشل.. وبعضهنّ تريده لمكانته الاجتماعية، وهذا أيضاً تعلّق وحب فاشل.. وبعضهنّ لمجرّد تقضية غرض، وهذا من أسوأ أنواع التعلّق.

قلتُ له:

- أيُّ نوع منهم هو الأفضل؟

قال لي:

- النوع الأخير.

قلتُ له:

- وما هو؟

قال لي:

- مَن تبحث عن الحب الحقيقي، مَن تُعجب بالشاب، ومن ثمّ تحبّه؛ لأنها ترى فيه أشياء لمْ ترَها في الآخرين، وتحبه من قلبها، ليس من أجل شيء، لا مال ولا سلطة، بل من أجل الحب فقط، وهذا هو التعلّق الناجح.

****

الحب يجعلنا نرى أشياء لا يستطيع الآخرون أن يروها، ونفعل أشياء من الغباء أن نفعلها من دون الحب، لو لمْ تُحب لما فعلتَها ولرأيتَها أشياء تافهة وغير مناسبة لسنّك أن تفعلها، ولضحكتَ ممّن يقومون بتلك الأشياء، ولكن ما إن تحب حتى تفعلها بكلّ إرادتك، والحب هو المُشرِف على ذلك، والمنفّذ الذي يقودكَ إلى فعل ذلك الجنون.

****

عرفتُها أكثر من نفسها، بل حتى مِن أمّها التي ربّتها طيلة حياتها وما زالتْ، وأبيها أيضاً الذي كان يشتري لها شوكولاتة ولا يعرف هل أعجبتْها أم لا.. عرفتُ فيها أشياء لمْ تعرفها

عنها أسرتها، حتى هي لا تعرف ذلك، وربما هي تعرف عني أشياء لا أعرفها عن نفسي؛ فكلٌّ منا يرى في الآخر أشياء لا يستطيع نفس الشخص أن يراها في نفسه.. هذا هو الحب الحقيقي.. كلّ محب يعلم ما بالآخر أكثر من نفسه، يعرف متى تكون حزيناً ومتى تكون سعيداً، ومتى تريد التكلّم ومتى لا تريد، ومتى تريد الذهاب ومتى لا تريد، ومتى تكون في أشدّ أوقاتك حاجة إليه، ويفعل المستحيلات، ويتحمّل الصعاب للوصول إليك؛ من أجل -فقط- التخفيف ممّا تعانيه.. فإن حصل أحدكم على مثل هؤلاء فعليه ألا يفارقه أبداً، وأن يتمسّك به جيّداً؛ فقد لا يصادف شخصاً من هذا النوع إلا مرّة واحدة في العمر.

لا تستطيع أن تجبر أحداً أن يحب أو ألا يحب.. إن أتاه الحب سيحب، وإن لمْ يأتِه لن يستطيع مهما فعل، وهذا ما حدث معي في بداية التعرّف على الحب فقد كنتُ أضحك كثيراً على ما أشاهده في التلفاز من حلقات الحب ومسلسلاته التي ملأت الساحة العربية بل والعالمية أيضاً، وكنتُ أسأل نفسي: أيُعقل ذلك؟! أيُعقل أن الحب كما يصوّرونه؟! أيُعقل أن الحب يبدأ بفرح وسعادة وينتهي بحزن ودموع؟! عندما كنتُ أشاهد، قلتُ لنفسي: لماذا لا أجرّب؟! فربما هو شيء جميل يُدخل السعادة والفرح على من يحب، ويجعلُ الشخص العاشق محبّاً لجميع البشر، وينظر نظرة مختلفة لكلّ شيء حوله.. قرّرتُ حينها أن أجرّب الحب، حاولتُ لعلّي أحب ولكني لمْ أستطع. قلتُ لنفسي: لماذا لمْ أتمكّن من أن أحب؟! لقد فعلتُ بعض ما جاء في المسلسلات والافلام التي شاهدتها، ربما لمْ يحن الحب بعد.. استمررتُ حينها لعلّي أجد طريقي إلى الحب ولكن كلّما حاولتُ كان الطريق مسدوداً، حاولتُ لعلّي أجيءُ إليه من طرق أخرى، ولكن كلّ الطرق إليه كانتْ مغلقة، حتى جاء الحب إليّ بنفسه.

الحب لا ينمّ عن إجبار بل عن اقتناع، إن كنتَ لا تقتنع بمن تحب فهذا ليس بحب. إن كنتَ تحب نصف حب والنصف الآخر لا فهذا ليس بحب، الحب إما أن يكون كاملاً وإما لا.

أصدق ما قيل هو في الحب، لمْ يتكلّم أحدهم من فراغ، جميعهم تكلّموا عن تجربة؛ فإن لمْ يجرّب من تكلّم عن الحب لما تكلّم عنه.

قد نختصِرُ الحب في بداياته فنقول بأنه جميل، ولكن الأجمل أن نستمرّ فيه؛ فهو عميق جداً، وقد نصِفه بأنه سيئ عند الفراق، عند خيانة المحب لنصفه الآخر، عندما يتخلّى أحدهما عن الآخر، وما بين هذين الاثنين -الحب والخيانة- لا أحد يعلم كم يسعد شخص ما ويفرح به عندما يأتيه، وكم من آهات وأحزان تحلُّ عليه عندما يفارقه بدون مقدّمات يقدمها.

الحب هو الشيء الجميل الذي يأتيك من دون أن تتوقّعه، وهو من الأشياء القلائل التي تأتيك لتسعدك. لا تستطيع مقاومة قلبك بالتوقّف عمّن أحببت. الحب رغم أن نهايته حزينة إلا أنه أجمل ما قد يحدث لنا في حياتنا.

وعندما انتهينا من الدراسة في الجامعة كان آخر لقاء لنا في تلك القاعة اللعينة التي جمعتنا تحتها لنحتفل بالتخرّج، لمْ أكن أعرف أنه سيكون حفل توديع وليس حفل فرح. هي تلك اللحظة التي رأيتُكِ فيها تبتسمين، لكني لمْ أعرف ما المغزى من تلك الابتسامة الجميلة على جبينكِ! هل هي ابتسامة وداع؟ أجبتُ نفسي: ربما نعم، إنها لحظة وداع بيننا، وكانت آخر لحظة أراكِ فيها، لمْ أكن أتمنى أن تكون الأخيرة، ولكنها كانت الأخيرة بالفعل، وفي تلك الليلة التي تلتها لمْ أنمْ نهائياً عندما سمعتُ خبراً أحزنني جداً، ولكنكِ تعرفينه جيّداً.. هي أسوأ ليلة تمرُّ عليّ، تحدّثتُ مع نفسي كثيراً: لماذا فعلتِ ذلك؟! ولماذا...؟! ولماذا...؟! وفي نهاية المطاف أدركتُ بأنكِ ربما لمْ تكوني جديرة بحبي، وأنكِ لا تستحقين هذا الحب الثمين.. هي هكذا الحياة تجعلنا نتعلّق ونحب وفي نهاية المطاف لا أحد يعرف ما هي النهاية. وكما عرفتكِ طيّبة القلب، بشوشة الوجه، صاحبة ابتسامة لا مثيل لها، وستظلّين هكذا دائماً.

في نهاية الأمر لمْ يعُد باليد شيء لفعله، إنه النصيب عندما يأخذ منا كلّ ما نملك كما حدث معكِ، ولكنني -ومع ذلك- سأعاتبكِ كثيراً على ما قمتِ به.

كنتُ أقول عنكِ أنكِ بيضاء كالشمس، جميلة كالقمر، عميقة كشيء عجز مَن في العالم عن فهمه، طفلة ما زالتْ تلهو بألعابها الخاصة التي اشتراها لها والدها بعد خمس سنوات من ولادتها، حكيمة في الخمسين من العمر تتحدّث والجميع يستمع إليها، شابة في الرابعة والعشرين من العمر مليئة بالحب والحنان.. مليئة بالطاقة والأمل كأي فتاة في مثل سنّها.. ليس ما قلتُهُ عنكِ مبالغة؛ فأنا أعرف أشياء لا تعرفينها حتى أنتِ عن نفسك، وكلّ ما كتبتُهُ ليس سوى قطرة من بحرٍ ممّا بكِ من جمال وعمق وحب، ولو أتى علماء العالم وعرّافوه ودجّالوه وكهنتها لما استطاعوا معرفتكِ كما أعرفكِ أنا.

لمْ يكن في حسباني أن وداعنا سيكون بهذه الطريقة المُحزنة جداً، ولكن -ومع ذلك- لمْ أستطِع عمل شيء، وقفتُ مثل المتفرّج الذي يشاهد مباراة كرة قدم في شاشة التلفاز: قد ينفعل، قد يحزن، قد يُغمض عينيه، قد يذهب ويعود، قد يفعل أشياء غير اعتيادية، قد يصيح، قد يقوم بكسر أيّ شيء بجواره، ولكنه مهما فعل لا يستطيع تغيير النتيجة على الشاشة. هكذا كانت الحكاية معكِ، فعلتُ كلّ ما بوسعي ولكنني لمْ أستطِع تغيير شيء، لا أعرف هل هو النصيب أم شيء آخر.

لقد كانتْ تلك الليلة سيئة جداً لعاشق ومحب فقد محبوبته إلى غير رجعة، أمضيتُ الليلة في سهر وتأويلات وحزن، نعم إنها أسوأ الليالي آه.. آه.. آه..! لو كنتِ تعلمين ذلك وتشعرين بما أشعر به لما فعلتِ ما فعلتِ، ولكنكِ ذهبتِ وتركتِنِي بدون أيّ مقدّمات.

إنها الساعة الثانية بعد منتصف الليل وما زلتُ ساهراً أُحدّق في سقف الغرفة وحزيناً في نفس الوقت والأسئلة تتلاحق في ذهني ولا أعرف لها أجوبة، هي وحدها تعرف أجوبة لكلّ تلك الأسئلة التي شغلتْ بالي ومنعتْني من النوم.. إنها الساعة الرابعة فجراً والمؤذن يؤذن لصلاة الفجر وما زلتُ ساهراً أسأل نفسي ولكن لا أستطيع الإجابة، كلّ ما أستطيع فعله هو التساؤل فقط.

اشتريتُ نوتة ملاحظات لكتابة الشعور العميق الذي كنتُ أشعر به عندما كنا نتقابل، ووقت الغياب، كلّما أشتاق إليها أذهب إلى الدفتر لأكتب لها رسائل لعلّها تصل إليها يوماً ما. كانتْ طالبة مجتهدة، وكانتْ درجاتها عالية، وترتيبها ضمن أوائل الدفعة. كانتْ تحضُرُ منذ الصباح الباكر ولا تغيب عنها محاضرة إلا عند الضرورة القصوى. هادئة لدرجة أن لا أحد يصدّق أبداً أنها هي، وهذا الشيء الذي جعلني مجنوناً بها؛ فأنا لا أحب الفتاة التي تراها كأنها شاب آخر، بضحكتها، بكلامها، بمشيتها.

والهادئ لا يعني أنه لا يتكلّم كثيراً كما يتصوّر البعض، بل قد يكون أكثر علماً ومعرفة، وصاحب عقليّة تستوعب أفكاراً ومعلومات تكفيان لمواجهة الجميع في آن واحد.

لا أعرف مَن الذي روّج لفكرة أن الهدوء يولّد الانعزال! الانعزال هو أجمل شيء يحدث معك، عندما تنعزل عمّن حولك: تريح جسدك، تتكلّم مع نفسك، تصغي لروحك، يهدأ عقلك. عندما تنعزل عن الآخرين تستطيع التفكير بعمق، عندما تنعزل تستطيع عمل أيّ شيء من المستحيل عمله وأنت محاط بالكثير من المهرّجين من حولك الذين لا فائدة منهم سوى الثرثرة فقط.. أما فائدة حقيقيّة واحدة منهم فلا تكاد تجد. أعرف زملاء لي في الكليّة كنتُ لا أصدّق أنهم بهذا القدر من الذكاء الذي لمْ أكن أتوقّعه بسبب هدوئهم؛ فالهادئون أذكياء، وليسوا انعزاليين.

لا أشجّع على الانعزال، ولكن هناك أوقات يحتاج فيها أيّ شخص الى الابتعاد كثيراً؛ ليجلس وحيداً يتفكّر ويريح عقله، وأقول لكم سراً: إن أردتم عمل أشياء عظيمة تفتخرونَ بها فابتعدوا عن كثيري الكلام الذين -وكما قلتُ- لا فائدة منهم، وبعد ذلك ستعرفون النتيجة.

إن مقولة (الهدوء يولّد العزلة) غير صحيحة بتاتاً؛ فليس الهدوء معياراً للعزلة؛ فالهادئون وكما يظهر للجميع بأنهم أشخاص لا يتحدّثون كثيراً، بل هم أشخاص حديثهم داخلي

موجّه إلى أنفسهم، لقد تعبوا كثيراً من الحديث مع الآخرين، وتوصّلوا إلى أن الحديث غير مُجدٍ مع بعض البشر، وأن الوقت قد حان للتحدّث إلى أنفسهم، وما أجمل حديث النفوس!.

وقبل ذلك كلّه كانت هناك مقدّمات ولكنني لمْ أكن أصدّقها كونها لمْ تُثبت يقيناً، وكانت في الأيام الأخيرة لنا في الكليّة عندما كنتُ جالساً مع زميلة لي في إحدى الطاولات المجاورة لباب الكليّة، وبينما كنا نتحدّث كان في يدها ما يسمى (دعوة خطوبة)، لمْ أعرف إلا في ذلك الوقت أن هناك دعوات للخطوبة، كلّ ما كنتُ أعرفه هو دعوات الزفاف، وليتني لمْ أعرف، ليتني لمْ أرَها، وليتنا لمْ نتحدّث ذلك اليوم، وليتنا لمْ نلتقِ..

قلتُ لها:

- لِمَن هذه؟

رغم أني رأيتها قبل أن أسألها ولكنني لا أريد أن أصدّق عيني فلعلّها تكذب..

قالتْ لي:

- إنها من .... ؛ لحضور حفلة خطوبتها.

قالتْ لي ذلك، ولكنها لمْ تقلْ لي متى سيكون؛ لعلّي كنتُ أذهبُ إلى حيث هي، أنظُرُ إلى عينيها ثم أذهبُ، معاتبة عبر النظرات فقط.. لعلّها تعرف ذلك، لعلّها تعرف ما أريد أن أسأل عنه، إنها لغة النظرات، اللغة المتعارف عليها بيننا نحن -أنا وهي-، ومن خلال هذه اللغة يعرف كلّ واحد منا فيما إذا كان قد عمل شيئاً لا يحبه الطرف الآخر.

بعد أن سمعتُ اسمها قلتُ لها باستغراب:

- ماذا؟!

قلتُ ذلك بصوتٍ عالٍ ربما سمعه من كان بالقرب منا حيث التفتَ إليّ بعضهم قبل أن يعودوا إلى انشغالاتهم الخاصّة..

قالتْ لي:

- دعوة من .... ؛ لحضور خطبتها..

كرّرتُ السؤال ثلاث مرات متتالية لعلّي سمعتُ بالغلط ولعلّها تغيّر إجابتها، ولكنها كانت تجيب بنفس الإجابة السابقة، وللأسف كانت الحقيقة المُرّة التي لمْ أكن أتوقّعها، وكانتْ صدمة بالنسبة لي.

قلتُ لها:

- أمتأكّدة ممّا تقولين؟!

قالتْ:

- نعم. ثم سألتْني:
- لماذا تصرّ على أني مخطئة؟!

قلتُ لها:

- لا شيء.. فقط لأتأكّد.

عجزتُ عن الكلام حينها ولمْ أتكلّم وعيوني تحدّق على الأرض، أصدّق وأكذّب ما سمعتُ، شردتُ بعيداً لا أعرف إلى أين وصلتُ بالضبط، وبينما أنا على هذه الحالة قاطعتْني بسؤال:

- ماذا بك؟!

قلتُ لها:

- لا شيء

قالتْ لي بضحكة على وجهها:

- هل يكون الذي في بالي صحيحاً؟..

قلتُ لها بوجه حزين:

- لا تذهبي بتفكيركِ بعيداً..

فضحكتْ..

ثم قالت:

- أنا أعرف.

قلتُ لها:

- تعرفين ماذا؟!

قالتْ لي:

- أنت تعرف قصدي..

ضحكتُ وعلامة الحزن على وجهي، وقلتُ لها:

- ما دمتِ تعرفين فلماذا تسألين إذاً؟!

قالتْ لي وهي مبتسمة:

- لا شيء..

ثم قلتُ لها:

- لماذا هذه الابتسامة والتي تبدو...؟!

قاطعتْني وقالت:

- ليستْ نهاية الطريق؛ فما زال أمامك الكثير..

نظرتُ إليها بتعجب وقلتُ:

- مَن يتحدّث؟ أهي أنتِ؟!

لمْ يكن أحد في ذلك الوقت يواسيني سواها، كانت بجانبي رغم أنها هي من أتتْ بالخبر السيئ الذي حوّل ذلك اليوم إلى يوم سيئ بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى، ومع هذا كلّه لمْ أشأ أن أصدّق، لعلّ الدعوة التي بحوزتها لفتاة أخرى، ربما لجارتها، أو قريبتها، أو صديقتها، أو حتى زميلتها، ولكن ليستْ لَمِن في البال.

بعد نصف ساعة من الحديث معها أتى وقت الظهيرة فذهب كلٌّ منا إلى بيته، رافقتُها إلى حيث موقف الباصات.. ولا أعرف حينها من قام بمرافقة الآخر: هل هي التي رافقتْني أم أنني أنا الذي رافقتُها؛ لأن العقل لمْ يكن موجوداً في ذلك الوقت، كان في مكان آخر، ولمْ يكن ثمّة سوى الجسد بلا روح.

إنها الليلة الأولى التي تمرّ عليّ بعد سماعي الخبر، ليلة الحزن الذي أعطيتِهِ لي مقابل كلّ ما أعطيتُهُ لكِ.. ليتكِ تعلمينَ ما حلّ بي في تلك الليلة: الجميع كان ينظُرُ إليّ وأنا في زاوية الغرفة كالمجنون الذي فقد عقله ولا يعرف ماذا يفعل، أضحكُ وفي داخلي بكاء وحزن، بل هي ضحكة حزن، لعلّكِ لمْ تمرّي بهكذا حالة؛ ولذلك لن تشعري بها، أنا مَن مررتُ بهذه الحالة وشعرتُ بها، كنتُ أنظُرُ إلى سقف الغرفة، وكلّ مَن يراني يسألني:

- ماذا بك؟!

أقولُ له:

- لا شيء..

فيقولُ لي:

- متأكّد؟

أقولُ له:

- نعم.

فيقولُ لي:

- ماذا حلّ بك؟! ألمْ تكن بصحة جيّدة قبل خمس دقائق؟!

أقولُ له:

- لا أعرف.

وبعد إصرار كبير على معرفة ما يدور فيّ من حروب وأحزان تصارع بعضها أجبتُهُم:

- ذهبتْ ولن تعودَ أبداً، ذهبتْ بعيداً بعد أن كانتْ قريبة جداً، تخلّتْ عن كلّ شيء كان بيننا وذهبتْ ولمْ تراعِ شيئاً.

فقالوا:

- مَن هي؟!

قلتُ لهم:

- تلك الفتاة التي أحببتُها، أحببتُها بحب العالمين أجمع، أحببتُها بحب لمْ يوجد على الأرض بعد، أحببتُها بحب جديد خاص بها وحدها، أحببتُها بحب لمْ تجده من قبل، ولن تجده بعد الآن.

أنتِ الوحيدة التي كان باستطاعتها إسعادي. أنتِ الوحيدة التي تعرفُ الطريق إلى قلبي من دون أن يرشِدَك أحدٌ إلى ذلك. أنتِ الوحيدة التي باستطاعتها إعطائي ما لمْ يستطِع العالم بأسرِهِ إعطائي إيّاه. أنتِ الوحيدة التي تعرفُ ماذا أريد وما الذي لا أريده، مطالبي بسيطة وباستطاعتكِ تلبيتها؛ فأنا شخص ليس كالآخرين، أنا شخص مختلف عنهم. أنتِ الوحيدة التي أحببتُ فيها كلّ شيء: بساطتها، وعفويتها، وحياءها، ونظرتها، وابتسامتها، وروحها. ولو تكرّر المشهد مرة أخرى مع فتاة أخرى تشبهكِ، ولو أنني أجزم أنه ليس هناك مثيل لكِ على هذه الأرض، ولو بحثوا لما وجدوا فأنتِ خُلقتِ وحيدة وفريدة من نوعكِ- لما أحببتُها كما أحببتكِ.

أنتِ الوحيدة التي عرفتُ معها أن السعادة أبسط ممّا نتوقع. ابتسامة منكِ تخلُقُ فيّ سعادة لن تتصوّريها أبداً، قد تظنين بأنها شيء بسيط ولكني أراها شيئاً عظيماً. نظرة منكِ تعيدُ الروحَ إلى الجسدِ المنكسر. أنتِ الوحيدة التي لديها مفاتيح قلبي الذي لمْ يدخله أحدٌ قبلكِ، ولن يُفتح لأحد بعدكِ.. فرغم الطلبات الكثيرة التي يتلقّاها، ولكنّه أبى إلا أن تكوني أنتِ الأولى والوحيدة التي تقوم بفتحه وتسكنُ فيه إلى الأبد، ومع ذلك، ومع كلّ الأمان الذي كان يحيط بكِ داخل قلبي المغلق لكِ فقط، كسرتِ كلّ ذلك الأمان وذهبتِ بعيداً، ولمْ تعودي أبداً. لا أعرف ما الذي أزعجكِ فيه، كان لكِ وحدكِ لا أحد ينازعكِ عليه ولا أحد دخله من قبلكِ، إنها المرة الأولى التي يدخل الحب فيها إلى قلبي وربما تكون الأخيرة.. أهذا هو جزائي! جزاء من وضعكِ في قلبه مخبّأة ومحفوظة من كلّ ما يزعجكِ في هذا العالم. أعطيتكِ

قطعة من قلبي بل أعطيتكِ كلّه تتحكّمين به كيفما تشائين، تحركينه إلى حيث تريدين، بل أعطيتكِ أكثر من ذلك: أصبحتُ أسيراً لكِ ولكِ فقط.

ليتكِ أعطيتِني إشارات أن النهاية ستكون قريبة، وستكون هكذا، وليس كما نريد، وليس كما خطّطنا لها معاً. لا أعرف لماذا لمْ تخبريني فأنا أفهم بالإشارات! فقط إشارة منكِ وأنا أتكفّل بالباقي: سأبتعد عنكِ كثيراً كأن لمْ تعرفيني من قبل، ونعود غرباء كما كنا لا أحد منا يعرف الآخر، ونعود إلى حياتنا الطبيعية من دون حب ومن دون خوف أن أيّاً منا سيفقد الآخر، ولوَفّرتِ عليّ الكثير من الوقت الذي كنتُ أقضيه بالتفكير بكِ ولارتحتُ في منامي.

وإن ظلّتْ في القلب أشياء لا أحد يستطيع تجاوزها مهما فعلنا، ولكننا سنتحمّل قليلاً من أجل أنفسنا، من أجل نسيان ما كان.. لا بأس سنتألّم قليلاً، هذا طبيعي جداً وأفضل من أن نتحمّل طيلة العمر على أشياء كاذبة وغير حقيقية خدعتْ كلينا، أقولُ: (كلانا)، ربما أنتِ لا تعرفين ذلك، وربما عرفتِ ولمْ تقولي لي.

لو وُجِدتْ محاكم لمقاضاة الحب لرفعتُ عليه قضية احتلال قلب بدون وجه حق؛ إذْ لمْ يُراعِ شعوراً ولمْ يراعِ شيئاً؛ فقد احتلّه في ليلة وضحاها، وهو مَن كان يرفض ذلك من قبل. فعل كلّ شيء كما يريد هو، أتاني ثم احتلّ قلبي والآن يتملّكني. أصبحتُ الآن ملك قلبي، أينما يوجّهني أطيعُهُ وأذهبُ معه. أصبحتُ مأسوراً له، أينما يودّ الذهاب تبعتُهُ، لا أسألُهُ حتى إلى أين أو لماذا ذلك، وحده يعرف إلى أين يذهب، يوجّهني هو لا دخل لي بذلك.

ليتنا لمْ نتعلّق ببعضنا. وأنتِ تعلمين أن النهاية ستكون ذلك ليتكِ ابتعدتِ عني عندما اقتربتُ منك أكثر. ليتكِ لمْ تبتسمي لي عندما نظرتُ إليكِ. ليتكِ أخفيتِ عني جمالكِ الذي شاهدتُهُ ذلك اليوم. ليتكِ لمْ تمرّي من أمامي. ليتكِ تأخرتِ أو تقدّمتِ بربع ساعة حتى لا أراكِ. ليتكِ كنتِ كما الأخريات عابرة بدون أن تثيري فيّ الحب الذي لمْ أؤمن به من قبل. ليتكِ لمْ تخرُجي ذلك اليوم وظللتِ كما الأخريات داخل القاعة أو في أرجاء الكليّة أو في أيّ مكان آخر حتى لا أراكِ.

أما أنا فليتني لمْ أحضر ذلك اليوم. ليتني لمْ أجلس بالقرب من الباب اللعين الذي كان جزءاً من السبب الذي جمعنا. ليتني التهيتُ بشيء ما حتى تمرّي من أمامي من دون أن أنظر إليكِ. ليتَ دكتور المادة لمْ يحضُر وأعلنها إجازة؛ كي أغادر إلى البيت ولا أراكِ. ليتني انتظرتُ في قاعة المحاضرات بدلاً من الذهاب مسرعاً إلى البوابة كي أجلس هناك.. لا أعرف ما الذي دفعني للذهاب إلى الجلوس هناك رغم أنه توجد الكثير من الأماكن المخصّصة للجلوس داخل الكلية! ليتني ذهبتُ لتناول وجبة الإفطار والتي في العادة تكون في البوفية المجاورة للكليّة مع الزملاء المزعجين الذين لا أطيقهم لكثرة ثرثرتهم وأنا لستُ من هذا النوع الذي يُكثر الحديث في أشياء تافهة لا فائدة منها.. فأنا أكره ذلك، إذا كان لديك شيء مهم فتكلّم به ليستفيد منه الجميع، وإن لمْ يكن لديك فاصمت؛ فلا فائدة من كلامك.

ليت ذلك اليوم كان إجازة رسميّة بمناسبة عيد وطني أو ما شابه ذلك -وما أكثرها خصوصاً خلال السنوات الأخيرة التي كثرتْ فيها الأعياد الوطنية- لكي لا تأتي الصدفة ونتلاقى. ليت ذاك اليوم كان إضراباً من أجل شيء ما: غلاء المعيشة مثلاً، أو انعدام البترول، قطع الطرقات المؤديّة إلى الكليّة، أو انقطاع رواتب الموظفين والدكاترة، المهم ألا نلتقي. ليت الكليّة كانت مغلقة بسبب مشكلة بين الحارس وشخص آخر حتى لا نلتقي بالصدفة. ليت الحارس أضاع مفاتيح الكليّة ولمْ يعثر عليها إلا الرابعة عصراً.

ليتها لمْ تكن صدفة وليتني لمْ أرَكِ.. نعم لقد كانت أسعد اللحظات والأيام، ولكنها تحوّلتْ فيما بعد إلى أحزان وأنتِ من صنعتِ ذلك، أنتِ مَن فعل بي كلّ ذلك، أنتِ سبب ما حلّ بي ولن أسامحكِ أبداً.

لماذا لمْ تخبريني عند سماعكِ للخبر قبل أن أراه أنا واقعاً حتى لا أقترب أكثر؟! لو كنتِ أخبرتِني من قبل ذلك بأن أهلكِ يريدون تزويجكِ بغير إرادتكِ، وأنتِ رافضة للموضوع، ولكن الأمر ليس بيدكِ، وليس لكِ حق الرفض أو الموافقة- لكان الوضع حينها مختلفاً قليلاً: كان سيكون هناك تصرّف آخر.

وإن كنتِ مُجبرة على ذلك: فلنهرب من هذه البلاد إلى بلاد يُحترم فيها الحب؟؛ لنعيش معاً، لنعيش الحياة التي نريدها، لنعيش الحياة التي رسمناها معاً، لنعيش حياة تليقُ بنا كمحبّين وعشاق، لنعيش حياة نحبها وتحبنا.

نعم.. سيقولون العادات والتقاليد الموجودة في بلادنا لا تسمح بذلك، أنا لا أعترف بهذه العادات والتقاليد، وخاصّةً عندما يكون الأمر متعلّقاً بكِ.. فليقولوا ما يقولون.. لا يهمّني كلامهم ولا أكترث له. العادات والتقاليد أصبحتْ كالممنوعات متى ما أرادوا استخدموها ومتى ما أرادوا لا. العادات والتقاليد لا تُستخدم في الحب.. فليحفظوا هذه القاعدة الرئيسية حتى لا ينسوها يوماً ما، وإن آمنتَ بالعادات والتقاليد فلن تحب يوماً.

نعم.. سيقولون عنّا أقوالاً لمْ يُنزل اللهُ بها من سلطان، سيتّهموننا اتهامات كاذبة، سينتشر الخبر بين المجتمع بأننا هربنا من بلادنا وهاجرنا إلى بلاد الحب -حدّ وصفهم- وسيقولونها باستهزاء وبضحكات على وجوههم السوداء، وما العيب في ذلك؟! فليقولوا ما يشاؤون.. لو كنّا نسمع كلام البشر لما عشنا هذه المدّة، لما تكلّمنا مع بعضنا بعضاً، لما بقينا أحياء إلى هذه الفترة، لانتحرنا خجلاً من أنفسنا منذ زمن طويل ولمْ نقوَ على الصبر إلى اليوم.. ولكننا كنّا أقوياء أكثر ممّا يتصوّرون ويتوقّعون، لمْ يتوقّعوا صمودنا، لمْ يتوقّعوا مقاومتنا لكلّ مرضهم الذي أعدَوا به المجتمع فأصبح منتشراً كالفيروس، وأصبح من الضروري أن يضطلع جميع أفراد المجتمع بمهمّة المساهمة في محاربته بشتى الوسائل والإمكانيات اللازمة سعياً للقضاء عليه، وإن لمْ يفعلوا ذلك سيستوطنهم ذلك الفيروس ويصبح من الصعب علاجه أو حتى التخفيف منه؛ فلتبدأوا في مكافحته ومحاربته حتى لا يصبح مستوطناً فيكم.

ليستْ جريمة أن نحب، الجريمة هي أن تُزوّج فتاة من شاب لا تريده والعكس صحيح، أمّا الحب فقد وُجِد لتلاقي الأرواح. كنتُ أسمع كثيراً أن قصص الحب والعشق ينتهي المطاف بأصحابها إلى الفراق ولكنّي لمْ أشأ أن أصدّق ذلك، بل صدّقتُ نفسي، وقلتُ: سنخوضُ التجربة لعلّها تكون الأنجح على مستوى عالم الحب والغرام.

ولكنّي صُدِمتُ عندما وصلتُ إلى النهاية، ولو صدّقتُ حينها كلامهم لما وصَلَ بي الحال إلى ما أنا عليه اليوم، ولتجنّبتُ كلّ ما حدث. كانت البدايات جميلة، بل كانت جنّة عندما دخلتُ إلى عالم الحب، ولكنها تُصبح دماراً وجحيماً عندما تحصل أشياء لمْ نكن نتوقّعها، أشياء تدفعنا إلى الاعتراف أمام أنفسنا أننا كنّا أغبياء وأغبياء جداً عندما دخلنا هذا العالم رغم التحذيرات التي وجِّهتْ إلينا، ومع كلّ تلك التحذيرات قامرنا ودخلنا؛ لعلّنا نحظى بحب غير الحب الذي صادفهم، ولعلّنا نختلف عنهم، ولعلّ حبنا كان أصدق من حبهم، ولعلّنا نؤمن بالحب أكثر منهم، ولعلّنا صادقين في مشاعرنا تجاه من نحب، لمْ تنفع كلّ تلك الأشياء فالنهاية كانتْ واحدة.

لمْ أتصوّر يوماً -ولو حتى في أحلامي- أن النهاية ستكون هكذا.. ليتكِ أخبرتِني منذ البداية أن هناك لحظة فراق ستكون بيننا؛ لعلّها تأتي وأنا قد استعددتُ لها بشتى الوسائل والأساليب المُمْكِنة، والتي ربما كانت ستُعيدني واقفاً من جديد كما كنتُ قبل أن أحبكِ.. لا أعلم إن كنتِ تعلمين تلك النهاية أم لا، أما أنا فلا أعرف عنها شيئاً، ولمْ تكن في الحسبان أصلاً، ولمْ أكن أتوقّعها، ولمْ أكن أريد أن تكون النهاية بهذا الشكل المُحزن، ليتكِ أخبرتِني قبل ذلك؛ حتى أستعدّ لها وعندما تأتي لا تؤثّر فيّ كما فعلت فيّ وما زالتْ إلى اليوم.

وقبل أن تُحطّم قلبي وتحتلّه، ليس بشيء، لا بالقوة والعنف، وإنما دخلتْه بالحب، وأنا لمْ أستطِع المقاومة، فتحتُهُ على مصراعيه لها؛ فاحتكرتْه لها- قبل ذلك لم يكن في بالي الحب، ورغم أنني كنتُ قد سمعتُ عنه كثيراً، وشاهدتُ المسلسلات التي تلخّص الحب أو تتحدّث عنه، ولكنّني لمْ أكن أتوقّع أنه سيأتيني يوماً ما.. فالحب كم فيه من عشاق! وكم فيه من محبين! وكم فيه في الجانب الآخر من مجروح ومكسور القلب! يفعل بنا ما يشاء، يحتلّنا، وبمجرّد أن نتعرّف عليه ونتعلّق به يتركنا ويرحل وكأنّ شيئاً لمْ يكُن. نصارع وحيدين كلّ الأحزان والعواقب التي تأتي فيما بعد ولا يأبه لكلّ ذلك، يأتي ليحتلّنا رغماً عنّا، لا يترك لنا مساحة لإبداء الرأي به، سواء بالموافقة أو الرفض.

رسالة إلى الحب:

عندما أتيتَني ذلك اليوم لمْ يكن يوماً عادياً بل عيداً وفرحاً وسعادة بالنسبة لي، بل أكثر من ذلك، أأقولُ ذلك؟..

أعلنتُ ذلك اليوم عيداً وطنياً للحب، ولكنّه تحوّل إلى كابوس عند الفراق، تحوّل إلى موت بطيء يقتلنا شيئاً فشيئاً. ليتكَ أيها الحب لمْ تأتِنِي ولمْ تشقّ لي طريقاً إلى عالمك. ليتكَ استثنيتني من ضحاياك الكثيرين الذين لا حول لهم ولا قوة سوى أنهم أحبّوا بصدق وإخلاص حينما تركتَني في منتصف الطريق.

كنتُ أعيش بدونك ولمْ تكن توجد أيّ مشاكل، كان كلّ شيء على ما يرام، كنتُ مقتنعاً بكلّ شيء ولكنّك أتيتَ فقلبتَ عاليها سافلها، وأعلنتَ الحرب عليّ، وعلى كلّ من يقف في طريقك. ألا تعرف أيها الحب أن المحبين أرقّ قلوباً وألين أفئدة؟! ليتكَ تعرف ذلك وتتركنا في حال سبيلنا.

أيها الحب: أستحلفُكَ بالله أن أكون أنا آخر ضحاياك؛ فأنا لا أريد لأحد من بعدي أن يحصل له ما حصل معي. أريدك أن تبتعد عنهم كلّما اقتربوا منك، تفرّ منهم كلّما أرادوا الإمساك بك.. فلتصنعْ لي معروفاً بذلك لعلّي أذكرك يوماً بخير. أيها الحب: لا تدخل قلباً إلا بأن يكون الحب إلى نهايته صادقاً وحقيقيّاً ونابعاً من كونك ستنفّذ وعدك بالوصول إلى النهاية وليس كما حدث معي، وإن كان على سبيل التجربة فلا تجرّب على قلوب المحبين والعشاق؛ فهم لا يستحقّون كلّ هذا العناء؛ فقلوبهم رقيقة لا تقوى على ذلك الدمار الذي تسبّبه بعد رحيلك.

أيها الحب: ما الذنب الذي اقترفناه حتى تفعل بنا كل هذا؟! كلّ ما في الأمر أننا أحببنا بصدق وبحسن نية ولمْ نكن نتوقّع أن النهاية ستكون كذلك.. أأنت محرّم من وجهة نظرك؟! لمْ أكن أعتقد ذلك، ولم تقُل لي منذ البداية عندما أتيتَني، كنتُ أسمع من بعض الناس أن الحب (حرام) كما يقولون، ولكنّي لمْ أتوقّع أن يأتي منك هذا التحريم.. ليتني صدّقتُهُم،

ليتني استمعتُ إليهم. أيها الحب: فلترحل من هذه البلاد إلى بلاد أخرى؛ فلا طاقة لي بالخداع والكذب والنفاق الذي تخفيه عني.. فأنا أعرف ذلك.

أيها الحب: إن كنتَ تريد الاستمرار فلنعقِد اتفاقاً بيني وبينك وتكون نقاطه كالتالي:

١- أن ترحل عني.

٢- ألا تعودَ إليّ مجدداً مهما كان ومهما صار ومهما جرى؛ فلا علاقة لك بكلّ ما يحدث معي؛ فأنا سأحب متى أردتُ، وسأكره -كذلك- متى أردتُ ذلك، لا يعنيك هذا الأمر في شيء.

٣- أن ترحل عن جميع العشاق والمحبين، وألا تعودَ إليهم إلا عندما تكون صادقاً معهم.

هذه شروطي مقابل ألا أفضحكَ أمام العامة والناس أنك شيء هباء.. علينا ألا نصدق أن هناك حب؛ فأنت مجرّد كاذب مخادع تغوينا، وما إن نقع في شراكك حتى تؤلمنا كثيراً، وكأن ثاراً كان بيننا من قبل.

انتهت الرسالة.

إنه الحب يخفي عنّا كلّ شيء عن المحبوب فلا نرى إلا حسناته فقط، ومهما فعل من أشياء سيئة فلا نراها، نتغاضى عن كلّ شيء من أجل الحب، من أجل مَن نحب.

ليتكِ تركتِني معلّقاً بين الحب وبين عدم وجوده، معلّقاً بالأمل. كنتِ أنتِ أقسى من ذلك بكثير فقد رميتِني من السماء إلى الأرض فوصلتُ حينها محطّماً ولا أقوى على الحركة، وإلى الآن ما زلتُ أعاني من ذلك السقوط المؤلم، فليتكِ تعلمين ذلك.

وبين كلّ ذلك الضياع والتوهان الذي كنتُ فيه ظهرتِ أمامي بصورة مزوّرة، وقلتُ لكِ حينها: أهذه أنتِ التي أحببتها؟! أهذه أنتِ التي كانت معي جنباً إلى جنب؟! أهذه أنتِ التي كانت تمشي معي وكلٌّ منا يمسك بيد الآخر ومَن يرانا يستغفر الله على ذلك وكأننا نرتكبُ

جريمة؟! وبالمناسبة لا أعرف على ماذا كان الاستغفار، ولكنه شيء جميل؛ فيكسب هو حسنات، ونكسب نحن حسنات أيضاً.. نحن من ألهمناه الاستغفار، وهو من استغفر.

أهذه انتِ من أعرفكِ طيلة سنتين ونصف وفي كلّ اللقاءات أنظر إليكِ وأتأملكِ ونضحكُ معاً؟! وبعد عامين قضيناهما معاً عدتِ غريبة كما كنتِ، وكأنّي لمْ أعرفك من قبل، وكأنكِ – وكما يقول المثل–: (فص ملح وذاب)! كنتُ لا أريد ذلك أن يحدث، ولكن أنتِ مَن صنعتِ الحدث، وما عليّ إلا تقبّله رغماً عنّي.

جعلتِني أشكّ فيكِ يوماً: أمعقول أن هذه أنتِ؟! لمْ أصدّق، ظننتُ حينها أنها قد تكون شبيهة لكِ وليست أنتِ شخصياً، كما يحصل في الأفلام والمسلسلات عندما يتم استبدال شخص بشخص آخر يشبهه ويتقمّص دور الشخص الأوّل وكأنه هو.. أمعقول أن هذا حصل معكِ؟! أمعقول بأنكِ أنتِ النسخة الثانية منكِ؟! أنا مَن كنتُ ذات يوم سنداً لكِ في كلّ شيء تحتاجينه، وأقِفُ إلى جانبكِ في كلّ شيء. نحن مَن عاهدنا أنفسنا –أنا وأنتِ– ألا يفارق أحدنا الآخر، ولكنكِ أنتِ مَن أخلفتِ بالوعد وتركتِنِي في منتصف الطريق تائهاً لا أعلمُ إلى أين أذهب، أتذكرين ذلك؟

أنا مَن كنتُ إلى جانبكِ ذلك اليوم الذي كانت السماء فيه ملبّدة بالغيوم، وبعد ساعات هطل القليل من المطر؛ فقلتِ لي:

- لماذا لا نخرجُ ونشاهدُ المطر من الخارج؟..

قلتُ لكِ:

- ولِمَ لا؟! فلنخرج..

فخرجنا حينها من الكليّة.. لمْ يكن مطراً غزيراً، بل كانتْ –كما يُقال–: (رشّة خفيفة). ذهبنا –أنا وأنتِ– نتجوّل إلى جانب الكليّة وإلى جوارها. كانت لحظات جميلة وجميلة جداً، كان كلانا مبلّلاً بالماء، وكلّما كان يصِل الماء إلى وجهي كنتِ تسارعين بمسحِهِ ولا تتركين له حق الوصول إلى وجهته، كنتِ تبتسمين حينها وتنظرين إلى عيوني، لا أعرف

ما الجديد فيهن رغم أنهنّ مثل كلّ يوم لمْ يتغيّرن! ربما لأن الجو بطبيعته كان رومانسياً وجميلاً، كانت الدقائق وكأنها أجمل اللحظات التي قد تشعر بأنها رومانسية في حياتك.. أتذكرين ذلك؟

أتعلمين شيئاً: لن أسامحكِ أبداً.. لن أسامحكِ لأنكِ خدعتِني بحب كاذب بينما كان حبي صادقاً بكلّ شيء. لقد أحببتكِ محبة أمّ لطفلها الأوّل بعد ثلاثين سنة من الانتظار. أحببتكِ بحب أهل الأرض جميعهم. أحببتكِ بحب لمْ تحلمي به أبداً ولن تحصلي عليه ما حييتِ. أحببتكِ بكلّ الحب الموجود في هذا العالم، حتى أمّكِ وأبوكِ وأهلكِ جميعهم لمْ يحبونكِ كما أحببتكِ.

رأيتُ فيكِ طوق النجاة، بينما أنتِ أغرقتِني في مستنقع الكذب والوهم الذي أوهمتِني به. رأيتُ فيكِ الصدق في البداية، ولكن لمْ أكن أعرف أن ذلك نوع من خداعكِ الذي تتقنينه. أحببتكِ بكلّ شيء بينما أحببتِني بلا شيء.

رأيتُ فيكِ ما لمْ أرَهُ في امرأة من قبل. أحببتكِ كما لمْ تُحَب امرأة من قبل. أحببتكِ حباً جديداً خاصّاً بنا -أنا وأنتِ- لمْ يحبه أحد من قبل. رأيتُ فيكِ أملاً ولكنّكِ كنتِ وهماً ليتني لمْ ألحقه، وليتني استمعتُ لِمَن نصحني يوماً عن أن الحب ما هو إلا كذبة كبيرة علينا تصديقها، ومن غبائي أن صدّقتُها ومشيتُ وراءها إلى أن أوصلتْني إلى مستنقع، فلمْ أعرف نفسي حينها: أهذا أنا أم شخص آخر؟! أنا الذي كفرتُ بالحب يوماً وها أنا الآن أقع في مستنقعه اللعين الذي دمّر الكثير من العشاق والمحبين، مستنقع لا أحد يخرج منه كما دخله بصحته العقليّة، بل يخرج مجنوناً في نهاية المطاف، وما أكثر الأمثلة على ذلك!

أتدرين ما المختلف بيننا نحن الاثنين؟ المختلف أنني أحببتكِ بصدق، بينما أنتِ أحببتِني بكذب. أحببتكِ كما لمْ تُحَب امرأة من قبل، بينما أحببتِني كحب عابر وليس كحب باقٍ إلى الأبد كما كنتِ تقولين لي. أحببتكِ بإخلاص وأحببتِني بخيانة. أحببتكِ الحب الذي لن تجدي مثله ما حييتِ، وأحببتِني كحب مؤقت غير قابل للاستمرار. أحببتكِ بحب خاص لمْ

يحبه أحد من قبل، وأحببتِني بالخداع. لمْ أكن أعرف أنكِ مخادعة إلى هذا الحدّ، ليتني عرفتُ ولو قليلاً عنكِ حتى لا أُصدم في النهاية.

أأسألكِ بضعَ أسئلة وتجيبيني بأمانة: أأنتِ مرتاحة لما فعلتِ؟ أأنتِ خطّطتِ لكلّ ذلك أم أنه شيء خارج عن إرادتكِ؟ أتلومين نفسكِ على كلّ ذلك أمْ أن قلبكِ لا يبالي؟ أقلبكِ يؤنّبكِ على فعلتكِ تلك؟ أأنتِ الفتاة التي قلتُ عنها يوماً بأنها ليستْ من صنف البشر بل هبطتْ من الجنّة من أجلي؟! أتعرفين: لقد أعماني الحب كثيراً عن رؤية حقيقتكِ التي كنتِ تخفينها عني، رغم أن بعض الأشياء كانت تدلّ على خيانة قريبة، أو حدث لمْ أتوقّعه، وأنني سوف أُصدم جداً عند حدوثه، ولمْ أكن أعرف أن الحدث على وشك الحدوث- ولكنّي لمْ أُعِر ذلك اهتماماً، كنتُ أقول لنفسي: لعلّها وساوس شيطانيّة تريد تفريقنا عن بعضنا ولا تريد منّا أن نقترب من بعضنا بعضاً.

أَوَتعلمين أمراً: أنتِ أفضل مَن قابلتُهُ في حياتي ولن يتكرّر مثل هذا الأمر أبداً، ولكنكِ في الآن ذاته أسوأ مَن قابلتُهُ في حياتي. لا أعرف ما الذي غيّركِ! كنتِ جميلة منذ البداية، كنتِ صادقة معي ولكنّي لمْ أعلم ما الذي حلّ بكِ لاحقاً وغيّركِ!؛ فأنا لمْ أكن أعلم ما الذي يدور بداخلكِ، أنا -فقط- أحكُمُ على الأشخاص من الظاهر وما يبدو من سلوكهم، ولستُ أعلمُ خفايا النفوس،

قلتُ لكِ من قبل -وما زلتُ أقولها-: أنتِ أجمل صدفة صادفتُها في حياتي. ليتكِ حافظتِ على ذلك. ليتكِ كنتِ على العهد الذي عاهدنا به أنفسنا منذ البداية: ألا يفارقَ أحدنا الآخر. ليتكِ آمنتِ بالحب كما آمنتُ به أنا، نعم، لقد آمنتُ بالحب وتشبّثتُ به كطوق نجاة ليخرجنا من الوضع المأساوي الذي نحن فيه، ومع ذلك لمْ أكن أعلم حينها أن الوضع سيزداد سوءاً بسببكِ أنتِ.. تحوّل كلّ شيء إلى كابوس أنتِ مَن صنعتِهِ.

اشتريتُ نوتة صغيرة لكتابة الرسائل، كنتُ أكتبُ لكِ رسائلَ بشكل يومي؛ لعلّ الرسائل تُخفّف ما بي ولو قليلاً. آه آه لو تعلمين شعوري عندما كنتُ أكتبُ تلك الرسائل! شعوري

عندما أنتهي من كتابتها، شعوري عندما أقرأها. ملأتُ حينها دفتراً كاملاً في غضون أسبوع واحد من رسائل الحب كانت جميعها مرسلة إليكِ.

الحب يجعلنا ضعفاء أمام مَن نحبهم رغم قوّتنا الكبيرة. الحب يجعلنا نعود إلى طفولتنا رغم تجاوزنا مرحلة الطفولة بعشرات السنين. الحب لا يحترم أعمارنا، بل يدفعنا إلى افتعال أعمال لا تتناسب مع أعمارنا ولا مع شخصيّاتنا.

أنا الذي بحثتُ عنكِ ذات يوم عندما غبتِ ولمْ تحضري إلى الكليّة، سألتُ حينها زميلاتكِ:

- ألمْ تحضُر ... ؟ فأخبرنني بأنكِ لمْ تحضري، وكانتْ حينها مفارقة عجيبة؛ لأنكِ لمْ تخبريني بذلك، ومن قبلُ كنتِ تخبرينني كلّ شيء حتى إذا أردتِ التأخّر فكيف بغياب يومٍ كامل! لمْ يكن يوماً جميلاً؛ لأنني لمْ أركِ.. ولأنكِ لمْ تخبريني بغيابكِ. في اليوم التالي التقينا وسألتكِ حينها:

- أين كنتِ؟ ولماذا غبتِ؟ هل حدث لكِ مكروه؟

قلتِ لي حينها:

- لا شيء ممّا قلتَ حدث.

قلتُ لكِ:

- وما هو إذاً؟!

قلتِ لي:

- كلّ ما في الأمر أن هناك عرس لجيراننا؛ فغِبتُ من أجل مساعدتهم.

قلتُ لكِ:

- لِمَ لمْ تخبريني بذلك.

قلتِ لي:

- لمْ أكن أتوقّع ذلك.

قلتُ لكِ:

- ماذا!..

قلتِ لي بأنّكِ ظللتِ في البيت لمساعدة الأسرة، وأن أمّكِ أجبرتكِ على ذلك وإلا لما غبتِ.. قلتُ لكِ حينها:

- لو كنتِ لمْ تأتِي اليوم لذهبتُ إلى حيث تسكنين أسأل عنكِ لأعرف سبب غيابك.

أتذكرين ذلك؟

أَوَتعلمين أمراً: أنتِ أجمل مَن أنجبتها النساء يوماً، وأنتِ أسوأ مَن خان حباً أعطيتُكِ فيه الأولويّة على نفسي. ظلمتُ نفسي حينها بسببكِ، أعطيتُكِ وقتي، وتفكيري، وعقلي، وقلبي، ومن ثمّ تركتِ قلبي وذهبتِ بكلّ أريحيّة وبدون توديع حتى.

أمعقول أن قصص الحب تنتهي بالفشل دائماً؟! أمعقول ذلك؟! لا أعتقد ذلك. أمعقول أن قصّتنا مثل إحدى القصص التي نشاهدها على شاشات التلفزة أو نقرأها في الكتب؟! أمعقول أن الحب الذي أحببتُكِ به قد رميتِ به عرض الحائط؟! أمعقول أن الحب كاذب؟! لا أعتقد ذلك يا حبيبتي التي لمْ تكن لي. الحب صادق لكن لِمَن يظلّ وفيّاً معه، وليس لِمَن يخونه في منتصف الطريق.. العهود والمواثيق التي عاهدنا أنفسنا عليها ضربتِ بها عرض الحائط ولمْ تأبهي بمشاعري أبداً.

كنتُ أستمعُ في راديو البيت في الصباح الباكر لبعض البرامج في المحطّات الإذاعية التي تتحدّث عن الحب، كنتُ أستمعُ لأغلب الرسائل والمشاركات الواردة من المستمعين والتي يقولون فيها بأن الحب ما هو إلا كذب وخداع.. كأن يحب أحد العشاق بحب وإخلاص، والآخر يخونُ بكلّ برود.. أحدهم يعطي قلبه لِمَن يحبه، ويقابله الآخر بكسره ورميه بدون أدنى سبب يذكر.. أحدهم يحارب الجميع من أجل أن ينتصِر الحب، وبينما هو يصارع كلّ تلك الحرب وذلك الدمار يتلقّى طعنة في ظهره ممّن أحب وأخلص له حبه.

ليتني صدّقتُ ما كنتُ أسمعه لعلّي أتجنّب كلّ ذلك الدمار الذي لَحِق بي. ليتني صدّقتُ كلّ ما قيل ولكنني كابرتُ حينها وقلتُ: سأخوض تجربة مختلفة عن تجارب الآخرين، تجربة حب آخر، حب غير الموجود، غير المتداول، غير المتعارف عليه، غير الحب الذي يعرفه الجميع. أَوَتعرفين أمراً: ليتني كما كنتِ أحب بحب مزيّف كما كان حبكِ، أخدعُ كما كان خداعكِ لي بل وأسوأ من ذلك. ليتني كذبتُ كما كذبتِ وأسوأ من ذلك، أنتِ مَن أجبرتِني على قول ذلك رغم أني لا أردّ المثل بالمثل حتى وإن كان شيئاً مؤذياً يمسّني.

أَوَتعلمين أمراً: لقد جعلتِنِي أكره الحب وأرى أنه أسوأ ما قد يمرّ على الشاب. منذ أن شاهدتُ تلك الورقة اللعينة واسمك مكتوب عليها رأيتُ الحب شيئاً أسود على الجميع الهرب منه، لا أعرف هل هو عن اقتناع -ولا أعتقد ذلك-، أم أنكِ من تسبّبتِ بذلك وأجزمُ بهذا، جعلتِنِي أكره كلّ شيء يمتّ إلى الحب بِصِلَة، جعلتِنِي ألعنُ الطرقات التي قادتني إليكِ ذلك اليوم. أرى الحب اليوم أسوأ كارثة تحلّ بالبشر، ليتني أُخطئُ في ذلك ويجد الآخرون الحب الذي يتمنّونه وليس كالذي وجدتُهُ أنا منكِ. أَوَتعلمين أمراً: لقد كرهتُ اليوم الذي لقيتُكِ فيه، كرهتُ الأماكن التي كانت تجمعنا معاً، بل وأكثر من ذلك: كرهتُ الكليّة، بل كرهتُ الجامعة بأكملها؛ لأنها جمعتْنا من غير موعد.

ليت للحب نقطة رجوع؛ عندما يخيب ظننا فيمن نحب أو تحصل أمور لا نتوقعها نعود إلى تلك النقطة، نعود كما كنا من قبل لكي لا نخوض مغامرة فاشلة، قبل أن ندخل في نزاع ليس لنا حق الفوز فيه ولا التغلّب عليه في ظلّ عدم وجود العدل فالظلم هو المسيطر، نعود وكأن لا شيء حدث، كأن لمْ نعرف بعضنا من قبل، نعود غرباء، نعود لأراكِ كأيّ فتاة مارّة من أمامي لا تثيرين اهتمامي ولا أعيركِ اهتماماً، نعود إلى نقطة الصفر التي انطلقنا منها مسرعَين نحو الحب، نعود إلى حالة ما قبل الانهيار النفسي الذي تلقّيناه، نعود إلى ما قبل الابتسامات والنظرات، نعود إلى ما قبل دخول الجامعة، نعود إلى المرحلة الثانوية، نعود إلى حيث بدأنا بالحب، نعود إلى ما قبل الجلوس بجانب الباب بخمس دقائق، نعود إلى ما قبل

ذلك بيوم واحد.. بساعة واحدة، نعود كشخصين لا يعرف أحدنا الآخر، وحين أراكِ أبادلكِ النظرات العاديّة كأيّ فتاة مارّة في طريقي، نعود وعندما أراكِ أقول لكِ: كيف حالكِ صديقتي؟ وليس: كيف حالكِ حبيبتي؟ وإن كان الحب مثل الصداقة ولكنه أعمق من ذلك، ولكنهما لا يختلفان كثيراً.. هل ستقولين لي الآن: كيف أستطيع نسيانكِ؟! كيف أستطيع تجاوزكِ؟! كيف أستطيع أن أجعلكِ عابرة في حياتي كالأخريات؟! أم ستتركيني كما تركتِنِي في المرّة السابقة أتعذّب وحيداً، لقد فعلتِ ذلك في الحقيقة ولمْ تعيريني اهتماماً .

أَوَتعلمين: كنتُ أذهبُ إلى القاعة الدراسيّة التي كنّا ندرسُ فيها، بل زرتُ كلّ القاعات والمعامل الدراسيّة الموجودة في الكليّة، لمْ أنسَ واحدة منها، مَن ينسى فتاة استوطنته عقلاً وروحاً، ملأتْ حياته بالفرح والسعادة، جعلتْ حياته جنّة، جعلتْهُ يشعُرُ أن للحياة معنى؟! ولكنها تخلّتْ عنه بعد كلّ هذا الحب الذي قدّمه لها.. نعم لقد تخلّيتِ عني، وتركتِنِي وحيداً في غياهب الجبّ ولا أحد هنالك.. لا قافلة العزيز ولا أيّ شيء آخر يسكن في ذاك المكان.

أنا الذي كنتُ أجلسُ إلى جانبكِ في كرسي مخصّص لحبنا أمام بوابة الكليّة نقضي دقائق معدودة، ولمْ تكن تقطع جلساتنا تلك سوى أوقات المحاضرات فقط، وإلا لجلسنا هناك إلى وقت الغروب.. أتذكرين ذلك؟

أنا الذي كنتِ تلبسين له أجمل ما لديكِ، وتتعطّرين من أجله بأجمل العطور الموجودة في خزانتكِ، وتصنعين لي نظرات غير موجودة، وابتسامات لمْ تكن يوماً على وجه أحد.. أتذكرين ذلك؟

أنا الذي كنتِ تنتظرينه أربع ساعات متواصلة لكي تحظي برؤيته فقط، ومن ثمّ تذهبين بعد ذلك من دون أن تحرّكي ساكناً.. أتذكرين ذلك؟

أنا الذي كنتُ أذهبُ معكِ إلى البوفية المجاورة للكليّة وكنتِ تصرّين على أن تدفعي أنتِ ثمن ما نطلبه.. أَوَ تذكرين يوم أن دفعتُ أنا فذهبتِ زعلانة مني ولمْ تنتظري حتى أُكمِل وجبة الإفطار التي كانت لكلينا؟ فقط عندما دفعتُ لحقتكِ بعدها ولمْ أجدكِ إلا في القاعة

قبل أن يدخل الدكتور بربع ساعة.. فدخلتُ حينها من أجل أن أراضيكِ، وكانتِ القاعة مليئة بزميلاتكِ اللواتي ينتظرنَ بدء المحاضرة، كانت زميلاتكِ ينظُرنَ إليّ ويضحكنَ ويبتسمنَ في نفس الوقت، وكأنّهنّ يردنَ بذلك مغازلتي لأُبدي إعجابي بهنّ، وأنتِ لا تكترثينَ لذلك أمامي فقط، أما داخلكِ فأعلم أن فيه ناراً مشتعلة، وأنكِ تريدينَ ضمّي إلى صدركِ وتقولين: كم أنا حمقاء! ولكنكِ تكابرين. «سامحني يا حبيبي» نعم لقد نطقتِها من قلبكِ ولكنك لمْ تنطقيها بلسانكِ.. أنا سمعتُ ذلك؛ فأنا أعرف أنكِ تكتمين أكثر ممّا تبدين، وتتمنّين لو أنني أعرف ذلك، نعم أنا أعرف ذلك.. لا تخافي يا حبيبتي. وبينما الأخريات ينظرنَ إلينا كأنهنّ يشاهدنَ مشهداً من مسلسل رومانسي ويقلنَ في أنفسهنّ: كم أنتِ غبية يا ...! لماذا لمْ تقبلي اعتذاره؟! أتريدين أن تضيعيه من بين يديكِ؟!

لو كنتُ أنا -تقول إحداهنّ- لأمسكتُهُ واحتضنتُهُ وطلبتُ منه أن يسامحني وليستْ أنا التي سأسامحه، جاء إليكِ بشخصِهِ طالباً منكِ المسامحة وأنتِ ترفضين ذلك! ماذا بك؟!

أمّا إحداهنّ فقالتْ:

- ليتني أصادفُ شخصاً مثلكَ يحبني كما تحبها بإخلاص، يحبني بدون مقابل، يحبني كما أنا، يحبني كحبكَ لها، وكما تفعل أنت، يحبني كما أريد.

وفي ذلك الوقت قلتُ لكِ:

- أنا لن أدفع مرة أخرى.

وأعطيتُكِ عهداً على ذلك، وأنا أفِي بعهودي جيّداً وأنتِ تعرفين ذلك. وبعد نصف ساعة (لأن دكتور المادة تأخّر في ذلك اليوم)- من محاولات المصالحة قبلتِ اعتذاري، وذهبتِ ونحن متصالحَين.. خرجتِ وأنا أنظُرُ إليكِ وأنتِ تبتسمين دلالة على قبول الاعتذار، وعُدنا إلى ما كنا عليه من قبل.. أتذكرين ذلك؟

أنا الذي كنتُ أذهب إليكِ عندما تصادفني مسألة ما من أجل أن نحلّها معاً، وعندما كنتِ تلمحينني آتياً إليكِ تتركين كلّ ما بيدكِ من أموركِ الخاصّة، وتُقبلين إليّ مبتسمة، وبوجه

يشعّ بالسعادة، بل والأكثر من ذلك: عندما كنتُ آتي إليكِ وأنتِ مع مجموعة من زميلاتكِ، لقد كنتِ ترمين كلّ ما في يديكِ وتتركينه بدون أيّ تبرير لفعلتكِ تلك، ولمْ تكوني تقولين حتى لزميلاتكِ إلى أين أنتِ ذاهبة فيما أنتِ تهمّين بالانصراف، ولكن بمجرّد أن تراني زميلاتكِ واقفاً بالقرب من مكانكنّ يقلنَ حينها: لقد عرفنا الآن لماذا ذهبت مثل المجنونة – حد وصفهنّ– لقد أتى حبيب قلبها.. أتذكرين ذلك؟

لا أعرف لماذا قمتِ بذلك! لماذا قطعتِ حبل الوصل الذي كان يصِل بيني وبينكِ؟! لماذا بنيتِ حاجزاً بيني وبينكِ؟! لماذا أرشدتِني إليكِ ومن ثمّ قطعتِ الطريق عليّ؟! كيف سأصِلُ إليك والطرق مقطوعة والحواجز مبنيّة في كلّ مكان؟! أتريدينني أن أذهب؟ ربما –بل وجب– عليّ الذهاب، ولكن لماذا أوهمتِني منذ البداية ومنذ لقائنا الأوّل بأنك ستكونين لي؟! لماذا لمْ تقولي لي ذلك في أوّل لقاء جمعنا؟! لو كنتِ قلتِ لي لكنّا ظللنا أصدقاء كلٌّ منّا يخاف الآخر، كلٌّ منّا يسأل عن الآخر عندما يغيب. لماذا جعلتِنا نقترب كلّ هذا القرب من بعضنا وأنتِ تعرفين النهاية مسبقاً؟! تركتِني بكلّ هذه البساطة وذهبتِ! ما الذي أعجبكِ في الشخص الذي اخترتِهِ؟! ما الذي أثارك فيه؟! وما الذي غيّر نظرتكِ عني؟! ألمْ نتعاهد يوماً ألا نفارق بعضنا وكنتِ أوّل من خان العهد وأوّل من كذب عندما وقّعنا على وثيقة تعهّد ألا يكذب أحدنا على الآخر؟! ما الذي حلّ بكِ؟! هل تعيْ ما تفعلينه؟! أم أن شيئاً حلّ بك ولمْ أعرف عنه؟ أعطيتُكِ كلّ ما لمْ تحلمي به من قبل وتجازينني بالرحيل! لماذا؟! ليتكِ تجيبين عن أسئلتي لعلّي أرتاح قليلاً وإن كان كاذباً ما ستقولينه؛ فلو كان صحيحاً وكنتِ صادقة لما تركتِني في نهاية الطريق وحيداً أندب الحظ الذي جمعني بكِ ذلك اليوم.

ما الذي حلّ بكِ؟! أهي أنتِ أم فتاة أخرى متلبّسة بكِ؟! لمْ أعرفكِ يوماً هكذا، هل أنتِ التي عرفتُكِ طيلة السنوات التي قضيناها في مرحلة الدراسة الجامعيّة؟!

ليتني صدّقتُ مَن كان يقول لي: «يا صديقي ليس هناك حب، وإن وُجِد فسيكون من طرف واحد».

لمْ يكن حبنا من طرف واحد، بل من كلينا، ولكن النهاية كانت من بطولتكِ. أتعرفين ما الذي كنتُ أفعله عندما كنتُ أسمعُ مَن يقول لي ذلك؟ كنتُ أضحكُ حينها وأنا أنظُرُ إليه وهو يتكلّم بتلك الكلمات ومن ثم أبتسم، ولمْ أكن أعرف حينها أنني سوف أكون الضحيّة، كما لمْ أكن أعرف أنني سأكون من يعطي والآخر سيخذلني ويذهب إلى شخص آخر.

أنا مَن أتيتُ ذات يوم وأنتِ واقفة مع زميلة لكِ في الطابق العلوي في الكليّة تتحدّثان لا أعرف عن ماذا، وبمجرّد ما وصلتُ أوقفتها الحديث، قلتُ لكِ:

- كيف حالكِ يا قلبي؟

قلتِ لي:

- ينبض بحبك..

قلتُ لكِ:

- كيف؟

قلتِ لي:

- دقّاته تقول لكَ: أحبك.

كانت زميلتُكِ تبتسم وهي واقفة بالقرب منكِ، وكلّما كانت تبتسم كانت تنظر إليّ، وبينما هي كذلك رأيتُ كرّاستها الدراسيّة.. كانت فيها بعض الكتابة، بالإضافة إلى اسمها مكتوباً على غلاف الكرّاسة.. قلتُ لها:

- خطّكِ أجمل من خطّ ... (أقصدكِ أنتِ).

فقالتْ لي بحياء شديد:

- شكراً..

قلتُ لها:

- هذه حقيقة وليست مجاملة.

وبينما نحن كذلك كنتِ تنظرين إلى كلينا، ولوهلة ذهبتِ من ذلك المكان غاضبة لا أعرف إلى أين وتركتِنا، أيقنتُ حينها أنني تسبّبتُ بمشكلة بينكِ وبين زميلتكِ الجميلة.. أتذكرين ذلك؟

ومرّة أخرى أيضاً عندما أتيتِ وأنا أتحدّث مع زميلة لي بشأن تكليف كان من المقرّر تسليمه ذلك اليوم، ولكنها لمْ تكتبه فطلبتْ مني المساعدة؛ فأعطيتُها كرّاستي لتنقل التكليف الذي أنجزتُهُ، انتظرتُها حتى انتهتْ من كتابته، ومن ثمّ أعادتْ كرّاستي إليّ، وبينما هي تعطيني إياها كان مجيئكِ في نفس تلك اللحظة، أعطتْني الكرّاسة مع ابتسامة لطيفة منها، وما إن رأيتِها تبتسم حتى علا الغضب وجهكِ واحمرّ خدّكِ الذي لا يليق به إلا أن يكون متفتّحاً، عرفتُ حينها أن تلك الابتسامة من زميلتي هي مَن فعلتْ بكِ ذلك، استأذنتُ منها لأذهبَ بعدكِ عندما رأيتكِ غاضبة، حاولتُ أن أتبعكِ ولكني لمْ أجدكِ، بحثتُ عنكِ وبعد جهد جهيد عثرتُ عليكِ في إحدى القاعات.. لمْ تكن تنقصكِ سوى الدموع ولا أعرف هل ذرفتِ الدموع قبل مجيئي، طرقتُ باب القاعة لألفتَ انتباهكِ ولكنكِ لمْ تلتفتي إليّ، طرقتُ مرّة ثانية وكانت النتيجة كالمرة التي سبقتها، دخلتُ حينها إليكِ، وجلستُ قبالتكِ أنظُرُ إلى عينيكِ الجميلتين اللتين كانتا على وشكِ أن تُمطِرا دمعاً، ظللتُ خمس دقائق أنظُرُ إليكِ، وقلتُ لكِ مازحاً:

- أتغارين عليّ؟

تبسّمتِ قليلاً ولكنكِ لمْ تجيبيني، كرّرتها حينها:

- تغارين عليّ يا قلبي؟

قلتِ:

- نعم أغار عليك..

قلتُ لكِ:

- بمقدار كمْ؟

قلتِ لي:

- لا يقاس.

قلتُ لكِ:

- ليس هناك شيء.. تطمّني.. مجرّد فعل خير أسديتُهُ لزميلتي حتى لا تنقص في درجات أعمال السنة.

قلتِ لي -وعلى وجهكِ ابتسامة-:

- رحيم بالناس!

قلتُ لكِ -بابتسامة-:

- بكل تأكيد.. ومَن منّا لا يحب الخير للناس!

عرفتُ حينها أنكِ لن تفارقيني حتى تعرفي السرّ وراء تلك الابتسامة..

قلتِ لي:

- ماذا كانتْ تقول لك؟

قلتُ لكِ:

- شكرتْني كثيراً على الخدمة التي صنعتُها لها.

قلتِ لي:

- وما سرّ الابتسامة التي كانتْ على وجهها؟

قلتُ لكِ:

- ربما كانت تبدي إعجاباً بي.

نكستِ رأسكِ إلى الأرض تعبيراً عن انزعاجكِ..

قلتُ لكِ:

- لا تصدّقي ذلك، كنتُ أمزح معكِ فحسب.

ثم سألتِني:

- ذلك -فقط- كلّ شيء؟

قلتُ لكِ:

- ذلك -فقط- الذي حدث.

ثم انتهى حديثنا.. أتذكرين ذلك؟

أتذكرين ذات يوم في أحد الاختبارات النهائية، وفيما لم يكن متبقيّاً على انتهاء وقت الامتحان سوى نصف ساعة، وأنا لمْ أكن قد أكملتُ الامتحان بعد، فقد كان ما يزال لديّ سؤال واحد من أربعة أسئلة هي مجموع أسئلة الامتحان، تلفّتُّ يميناً وشمالاً لعلّي بإجابة من هنا أو من هناك فلمْ أجد حينها؛ فبدأتُ أشعرُ بالقلق على تضييع درجات سؤال كامل، وكان السؤال المتبقّي سؤال الصح والغلط الذي لا يقبل القسمة على اثنين فإما أن تضع أمام كلّ عبارة في السؤال علامة الصح أو علامة الخطأ، وبينما كان الوقت يشارف على الانتهاء، والمراقب ينادي ويقول بأنه لمْ تتبقَّ سوى نصف ساعة وسوف يقوم بسحب أوراق الإجابة بعد ذلك.. وبالمناسبة كم كنتُ أكره الغش منذ دخولي الجامعة حتى تخرّجي منها، لمْ أفكّر يوماً بالغش حتى وإن وجدتُ فرصة لذلك، لمْ يكن الفعل ذلك نابعاً من قناعة، وبينما يزداد الضغط والقلق عليّ- تذكّرتُ حينها أننا -أنا وأنتِ- أبرمنا اتفاقاً قبل أن ندخل قاعة الامتحان بكيفيّة تصرّفنا إذا ورد ضمن أسئلة الامتحان سؤال من هذا النوع، وكان الاتفاق حينها بأنه إذا كان هناك سؤال لمْ يستطِع أيّ واحد منّا حلّه فالطريقة الأولى ليصِل إليه الدعم والمساعدة من الطرف الآخر كانت عن طريق الإشارة بيننا، فإذا أتى سؤال من هذا النوع عليكَ أولاً مناداة المراقب كي تسأله سؤالاً غبياً، أو أن تطلبَ منه أن يقرأ هذا السؤال رغم أنه واضح وواضح جداً فهو مجرّد طلب وضع علامة صح أو علامة خطأ.. ناديتُ المراقب، وقبل أن يصِل إلى حيث أجلس قلتُ له:

- شكراً لقد فهمتُ ذلك..

وبينما سمعتِ أنتِ كلامي ابتسمتِ لأنكِ عرفتِ ما الذي أعنيه، وحين بدأتُ بحلّ الفقرة الأولى كانت إجابتي صحيحة، أما كيف علِمتُ أنها صحيحة فلأننا اتفقنا من قبل إن كانت الإجابة صحيحة أن تكتبي حرفين من اسمي، وإن كانت خاطئة أن تكتبي حرفاً واحداً فقط، والعكس، وبالصدفة غير المتوقّعة أفضى توزيع الطلاب والطالبات إلى جعلكِ أمامي مباشرة. أمليتِ لي فقرة فقرة حتى وصلتُ إلى نهاية آخر فقرة من السؤال، وما إن انتهيتُ من نقل الإجابات حتى قمنا معاً وسلّمنا دفترَي إجاباتنا إلى مراقب الامتحان أو رئيس لجنة الامتحان لا أعرف تحديداً. خرجنا من القاعة، واتّجه كلٌّ منّا إلى بيته.. رافقتُكِ إلى منتصف الطريق ثم ذهبتُ في طريق أخرى.. كانت زميلاتكِ يحطن بكِ ويسألنكِ عن الامتحان، وتحديداً عن إجابة الفقرة الثانية في السؤال الأول، كُنّ يسألنكِ وأنتِ تجيبين وتنظرين إليّ وتبتسمين، كنتِ تُعدّينَ المرجع الأساسي لكلّ زميلاتكِ إن استصعب عليهنّ سؤال أو أردْنَ مراجعة إجاباتهنّ في الامتحان؛ لأنكِ -كما ذكرتُ سابقاً- ذكيّة جداً.. في ذلك اليوم ذهب كلٌّ منّا في طريقه والنظرات والابتسامات لا تفارقنا.. أتذكرين ذلك؟

أتعلمين أمراً: لقد كتبتُ هذه الرواية لكِ لعلّكِ تذكرين الأيام الجميلة التي كانت بيننا والتي تركتِها خلف ظهرك وتركتِني أصارع الأحزان وحدي، كتبتُها لعلّك تقرأينها يوماً ما وتقولين بأنك تتذكرين كلّ ذلك بعد أن تفيقي من الغيبوبة التي أنتِ فيها، كتبتُها لعلّك تذكرين يوماً أن شخصاً كان يحبكِ وصنع المستحيل كي لا يتركِ ولكن أنتِ مَن تركتِهِ وفرّطتِ به، كتبتُها لعلّها تكون لي سفينة إنقاذ من الغرق الذي أوقعتِني به وسط البحر الهائج بالأمواج المتلاطمة.

لقد سمعتُ ذات يوم أن الكتابة تُهدّئ النفوس؛ فقلتُ: سأكتب ذكرى لنا. لمْ أكتبها لي ولكن كتبتها لكِ؛ عسى أن تقرأيها يوماً فتذكريني آنذاك.

أأقولُ لكِ أمراً: لستِ وحدكِ سيئة وناقضة للعهود والمواثيق، بل هناك الكثير مثلكِ، لمْ تكوني الأولى، ولن تكوني الأخيرة بكلّ تأكيد؛ فالحياة مليئة بالأشخاص السيئين والذين

يخدعون الآخرين ولا يستطيعون العيش إلا بالخداع، وإن تركوه فلن يطيقوا الاستمرار على قيد الحياة، يتربّون على ذلك منذ صغرهم، ويترعرعون عليه، ويعيشون به، وسيبقون على ذلك ما داموا أحياء.. وما أكثرهم خاصّة في هذه الأيام! فحياتهم هكذا لا يستطيعون تغييرها، وإن حاولنا تغيير ذلك لن نفلح؛ لأنها لاصقة بهم حدّ النخاع.

أنا لا أصنّفكِ مثلهم نهائياً فما زلتُ أحبكِ وإن فعلتِ بي كلّ ذلك.. فما زلتِ في هذه الأشياء في البداية، ولمْ تصلي حدّ مستواهم أبداً.. كان الذي حصل بيننا هو بداية ممارستكِ لهكذا أفعال. كنتُ لا أود قول ذلك أبداً ولكنكِ أجبرتِني على قوله. ليتكِ كنتِ كما كنتِ في البداية، كما كنتِ بعد أن رأيتُكِ ذلك اليوم. ليتكِ بقيتِ على عهدكِ وميثاقكِ. ليتكِ حافظتِ على نظرتي تجاهكِ وما وصفتُكِ به حينها بأنكِ أجمل امرأة في العالم، وأيضاً بأن صوتكِ أجمل من ألف مقطوعة شعرية وغنائية، صوت فاتن لمْ أسمع صوتاً مثله من قبل ولو مقارباً له. الآن لمْ تعودي كذلك، لقد أصبحتِ مجرّد عابرة في نظري. ليتكِ كنتَ كما أنتِ مُخْلصة للعهد الذي عاهدنا أنفسنا عليه؛ فالحب يقوم على الصدق أولاً، وإن لمْ فهو حب كاذب وزائف. لا يوجد حب في المنتصف بين الصدق والكذب، كما لا يوجد شيء اسمه: سأحب قليلاً، لا يوجد شيء اسمه: سأجرّب أن أحب؛ فإمّا أن تُحِب وإمّا لا.. انتهى.

أتعرفين شيئاً: ليتني أستطيع نسيانكِ كما نسيتِني، بل أسهل من ذلك ربما: ليتني أستطيع نسيان ملامح وجهكِ.. وهذا يكفيني وإن كان هذا ضرباً من المستحيل. ليتني أنا من بدأ بذلك الخداع والكذب. ليتني لمْ أحبكِ وكأنكِ كلّ شيء. ليتني لمْ أحبكِ دفعة واحدة. ليت أنه كان لديّ منبّه لكلّ تلك الأحداث التي لحقتْ بي.. وقد يسأل أحدهم:

- وماذا ستفعل بالمنبّه؟

سأقول له:

- لعلّه ينبّهني إلى أن هناك أحداثاً ستأتي، ولكن لا يحدّد لي متى سوف تكون.

ربما لو وُجِد ذلك المنبّه لتجنّبتُ كلّ ذلك منذ البداية، ولكنتُ حذِراً كثيراً عندما أخطو خطوات نحوكِ، ولكن لمْ يكن للمنبّه وجود، ولمْ أستطِع تجنّب الاقتراب منكِ؛ فوقعتُ في مصيدة حبكِ، وها أنا اليوم ما زلتُ أعاني من عواقب حبكِ، وسأعاني منها، وأنتِ السبب بكلّ ذلك.

أنا مَن كنتِ ترسلين له في منتصف الليل رسائل الحب، وكنتُ أردّ عليكِ بالمثل، ولكنكِ لمْ تكوني تتوقّفين عن إرسال تلك الرسائل.. سألتِنِي ذات ليلة:

- لماذا لمْ تنمْ؟

فقلتُ لكِ:

- كنتُ أنتظِرُ رسالة منكِ حتى أخلدَ للنوم، وها قد وصلتْ؛ ولذا سأذهبُ الآن لأنام سعيداً مرتاح البال.

ثم سألتكِ:

- وأنتِ.. لماذا لمْ تخلدي للنوم حتى الآن؟

فتقولين لي:

- تأخّرتُ كي أرسلَ لكَ رسالة لعلّكَ تنام، والآن سأذهب إلى النوم.

كان الوقتُ حينها متأخّراً عندما طلب كلٌّ واحد منا أن يسمعَ صوتَ الآخر، كنتُ أريد ذلك، ولكنكِ كنتِ أكثر إصراراً عليه، وحينها اكتفينا بالرسائل النصّية، وعند لقائنا في يوم السبت الذي يلحق إجازة الجمعة، سألتُكِ حينها:

- لماذا كنتِ مُصِرّة على سماع صوتي في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل؟

قلتِ لي حينها:

- أفتقِده..

قلتُ لكِ:

- هذا غير مبرّر لذلك؛ فأنا مَن كنتُ إلى جانبكِ يوم أمس الأول. (أقصد يوم الخميس).

قلتِ لي:

- أتريدُ أن تعرف لماذا؟

قلتُ:

- نعم.

قلتِ لي:

- لا أستطيع تحمّل غياب يوم كامل دون أن ألقاكَ أو أسمع صوتكَ وأنظر إليكَ وأتأملكَ.. أنظر إلى عيونكَ.. إلى ابتسامتكَ.

قلتُ لكِ:

- لماذا لمْ تصبري على ذلك يوماً واحداً؟!

قلتِ لي:

- لمْ أستطِع ذلك.

أتذكرين ذلك؟

أنا مَن أعطيتُكِ وردة من النوع الذي تحبينه بمناسبة نجاحكِ، ليس نجاحكِ فقط ولكن تفوّقكِ على كامل دفعتنا الدراسيّة.. لمْ تكوني تعلمين بعد بهذا التفوّق الذي أحرزتِهِ، وكنتُ أنا أوّل مَن سمع بأنكِ في المراتب الأولى للدفعة في تلك السنة الثالثة من دراستنا. وبينما كنتِ خارجة من باب الكليّة لا أعرف إلى أين كنتِ ذاهبة، كنتُ أنا عائداً إلى الكليّة، فمجرّد أن رأيتِني أقبلتِ إليّ، وأنا مضيتُ باتجاهكِ.. فالتقينا في منتصف الطريق.. قلتُ لكِ حينها:

- ألف حب مبروووك عليكِ حبيبتي بمناسبة النجاح والتفوّق وبامتياز على الدفعة.

مجرّد أن سمعتِ ما قلتُ لمْ تمهليني حتى أُكمِل وبادرتِني بقُبلة على خدّي الأيمن، وقلتِ لي:

- أجمل شيء سمعتُهُ في حياتي، وأجمل مفاجأة أتلقّاها طيلة عمري.

كان هناك حشدٌ من الزملاء ينظُرُ إلينا ونحن واقفان، لمْ تأبهي لكلّ ذلك الحشد ومنحتِنِي القُبلة التي لطالما كنتُ أنتظرها منكِ منذ زمن.

«لو كنتُ أعرف أن الورد يمنح قُبلة لأعطيتكِ كلّ مشاتل الورد الموجودة في بلادنا، وإن لمْ يكفِكِ ذلك كنتُ سأستوردُ لكِ من الدول المجاورة» قلتُ لكِ ذلك.. فقاطعتِنِي مازحة:

- كيف ستفعل ذلك؟!

قلتُ لكِ:

- لا عليكِ.. لديّ طريقتي الخاصة؛ حتى تعطيني ما أعطيتِنِي إيّاه اليوم.

ما إن سمعتِ كلامي هذا حتى ضحكتِ ضحكة سمعها كلّ مَن كان بالقرب منّا.. أتذكرين ذلك؟

أكنتِ صاحبة القُبلة على وجهي أم أن فتاة أخرى هي من فعلتْ ذلك؟! لا أعرف حقاً؛ لأنكِ جعلتِنِي أشكّ في كلّ شيء.. الشيء الذي أعرفه جيّداً أن من تلقّى تلك القُبلة هو أنا، وما عدا ذلك لا أعرف يقيناً؛ لأن كلّ شيء أصبح يتعامل بالكذب والخداع، ويبدي الوجه الآخر الذي يتقنه، ويخفي الوجه الآخر السيئ. أصبح معظم الناس لديهم أقنعة مزيّفة يستبدلونها متى ما أرادوا ذلك، ويرمونها متى ما أرادوا.

أنا مَن كنتُ أخرج معكِ عند الانتهاء من المحاضرات، ونذهب معاً -أنا وأنتِ- وكلٌّ منا يمسك بيد الآخر شاعرَين بسعادة غامرة. ومن أجمل الصدف بالنسبة لي عندما كانت تنتهي محاضرتي في نفس الوقت الذي تنتهي فيه محاضرتكِ.. كنتُ أذهب معكِ إلى موقف الباصات حيث تصعدين من هناك على متن أحد الباصات كي يوصلكِ إلى البيت، كنتُ أرافقكِ إلى ذلك الباص الذي تركبين فيه، ولا أطمئن إلا حين أراكِ راكبة فيه.. فأذهب أنا

ويتحرّك الباص فيلاحق كلٌّ منا الآخر بالنظرات والابتسامات التي كانت صادقة حينها.. أتذكرين ذلك؟

أتعرفين أمراً: الأرض لا تصلح لنا نحن معشر المحبين والعشاق؛ لأننا نحب بصدق، وأخلاقنا لا تسمح بغير ذلك.. مكاننا ليس على هذه الأرض اللعينة التي -كما ذكرتُ- تمتلئ بالنفاق والخداع والكذب، مكاننا في كوكب آخر، حتى وإن هاجرنا إلى بلد آخر سنواجه نفس تلك الخيانة وذلك الخداع اللذين نفرُّ منهما.

أأقولُ لكِ أمراً: سأحزن على ما حدث، وإن قلتُ غير ذلك فأنا أكذبُ على نفسي التي تتألّمُ كثيراً على مدار اليوم. أنا لستُ سوى بشر ولستُ مصنوعاً من الحديد حتى لا أحزن ولا يداهمني اليأس وأغضب، أعرف أن كلّ ذلك لا يعنيكِ في شيء؛ فلو كان يعنيكِ لما فعلتِ ما فعلتِ.

وأضيفُ لكِ أمراً: لن أضربَ عن الطعام من أجل ذلك، وكما سمعتُ من قبل أن البعض فعل ذلك حينما كانت قصّة حبه مشابهة لقصّتنا، لن أبكي على ذلك رغم حزني الكبير، ولو نظرتِ إليّ لوجدتِني صلباً كما كنتُ في البداية، وأنتِ تعرفين ذلك، وتعرفين أيضاً أن أكثر شيء كان مشتركاً بيننا هو: الهدوء والصمت.. وهذا هو أكثر شيء جعل كلاً منا يليق بالآخر، يناسب الآخر. كنّا من قبل ذلك تائهَين، وما إن التقينا حتى بدا الأمر وكأننا كنّا نبحث عن بعضنا منذ سنوات.

سألتِنِي ذات مرّة:

- أتُحب فتاة أخرى، أو -على الأقل- مُعجبٌ بفتاة أخرى؟..

تعرفين إجابة السؤال قبل أن تسأليه، ولكنكِ تريدين أن تتأكّدي من ذلك.. أتعرفين ماذا أجبتُ عن سؤالكِ حينها؟ أجبتُ عنه:

- إن كانتْ بمواصفاتكِ؛ فسأحبها.

قلتُ لكِ ذلك مازحاً؛ لأنكِ تعرفين بأنني لن أجد مثلكِ مهما فعلتُ..

قلتِ لي حينها:

- حقاً؟

قلتُ لكِ:

- نعم.

فضحكتِ عندئذ؛ لأنكِ تعرفين أنه لا توجد فتاة مثلكِ.

لمْ أخشَ الحب، ولم تُصِبْني الرّيبة منه، وكلّما كنتُ أقتربُ منكِ كنتُ أشعرُ بالأمان، ولمْ أكن حينها أعرف أنه أمان مزيف، قُرْب مزيف. وكلّما كنتُ أقتربُ أكثر كنتِ تبتعدين أكثر. كلّما تعلّقتُ بكِ أكثر أفلتِنِي من يدكِ أكثر فأكثر حتى بتُّ وحيداً في طريق مهجور لا يمرّ به إلا مَن أخلصوا في حبهم وخُذِلوا في النهاية، وقد التقيتُ بالكثير منهم، وكلّ شخص منهم لديه قصّة منفصلة.

الشيء الوحيد الذي سأكسبُهُ هو: عدم تضييع وقتي كلّ صباح لأقول لكِ: صباح الخير يا حبيبتي.. أو أرسل لكِ رسالة بذلك. لمْ أندم على حبي لكِ أبداً، كلّ ما فعلتُهُ كان عن اقتناع؛ لأن حبي لكِ كان صادقاً وستعرفين ذلك في يوم ما. كلّ شيء كان جميلاً ولكنكِ جعلتِ النهاية مظلمة وقطعتِ كلّ الطرقات للوصول إلى الضوء الذي كان يومِضُ في نهاية الدرب رغم أن الطريق كان سالكاً ولا توجد أيّ مطبّات قد تعرقل الوصول إلى النهاية. كان بيننا الكثير من الأشياء المُشترَكة ولكنكِ قمتِ بتجاهلها كلّها، كان من ضمنها الهدوء الذي يحفّنا، والسكينة التي تسكن أرواحنا، فضلاً عن طيبة قلبينا، ولكنكِ خذلتِنِي.

أتعرفين ما الذي أعطيتُكِ إياه؟:

أعطيتُكِ الصدق، وأعطيتِنِي الكذب.

أعطيتُكِ الإخلاص، وأعطيتِنِي الخذلان.

أعطيتُكِ الحب كاملاً، بينما أعطيتِنِي نصف حب.

أعطيتُكِ الوفاء، وأعطيتِنِي الخيانة.

أعطيتُكِ الصراحة، وأعطيتِنِي الخداع.
أعطيتُكِ العهد على أن نبقى معاً إلى الأبد، وأعطيتِنِي نكث العهد.
قرأتُ ذات يوم رواية كانت تقول بأن المرأة تهزم الرجل في قصص الحب، لكنني لمْ أصدّق ذلك، ظننتُ حينها أننا -أنا وأنتِ- سننتصِرُ معاً، وأنّ لا أحد منا سيُهزم، ولكني اكتشفتُ لاحقاً أن تلك المقولة كانت صحيحة فها أنتِ قد هزمتِنِي، ليس بالحب ولكن بالخداع والكذب، أو بمعنى أصح: بالحب المزيّف.
أقسم لكِ بكلّ الأديان السماوية بأنه لن يعطيكِ ولو ربع ما كنتُ سأعطيكِ أنا لو كنتِ من نصيبي، ولكنكِ رضيتِ بذلك، وما عسايَ أن أقول سوى: ألف مبروك. وكعادتي دائماً: أتمنى السعادة للجميع.
كنتُ أريد أن تكون قصتنا حقيقة واقعيّة، لا كما نقرأ في قصص الحب ورواياته التي سبق أن قرأتُ الكثير منها ولمْ أصدّق كلّ تلك القصص والروايات؛ فقد آمنتُ بقصة حبنا، لقد أيقنتُ حينها أنها ستكون حقيقيّة، ولمْ أتخيّل -ولو لوهلة- أنها ستكون كالقصص الأخرى.
جميع من تحدّثتُ معهم أخبروني بألا أثِقَ كثيراً، فقلتُ لهم حينها:

- لماذا؟!..

قالوا لي:

- لأنكَ ستندم كثيراً.

فقلتُ لهم:

- على ماذا أندم؟!

قالوا:

- ستعرف ذلك إن غامرت.

ليتكِ كسرتِ قاعدة الخيانة التي أصبح الجميع يتحدّث عنها في قصص الحب. ليتكِ آمنتِ بالحب الذي كان بيننا ولمْ تخونيه في منتصف الطريق. ليتكِ صدَقتِ معي ووصلنا حينها إلى

نهاية الطريق كقصة حب فريدة من نوعها، ولعلّنا -أنا وأنتِ- نردُّ على من يقول بأن الحب ما هو إلا كذبة كبيرة، كنّا سنردّ عليه بثقة أننا وصلنا إلى النهاية السعيدة التي رسمناها لقصة حبنا كما أردنا أن تكون.

أأقولُ لكِ الحقيقة:

ما زلتُ أحبكِ
رغم كلّ ما قلتُهُ عنكِ؛ فأنا رجل أنسى سريعاً، ولديّ ذاكرة ضعيفة.

انتهت

****

رواية

اختطاف قلب

عن المؤلف:

يحيى محمد سعد العُمري

(مهندس وكاتب)

تخرّج من كلية الحاسوب وتكنولوجيا المعلومات جامعة صنعاء تخصص نظم معلومات للعام ٢٠١٨م.

ولد في عام ١٩٩٣م في اليمن - محافظة ريمة - مديرية السلفية - عزلة الأسلاف.

شاب طموح وشغوف يحب الكتابة، بدأ في كتابة أول مقال له منذ سنة تقريباً، وجد نفسه محباً للكتابة وأنّ الكتابة بدأت تحبه.. كتب بعدها العديد من المقالات والقصص القصيرة، استمر بعد ذلك حتى وصل إلى كتابة هذه الرواية كبداية انطلاق، تليها مرحلة الإعداد لكتابة كتابه الجديد ومواصلة مساره العلمي والإبداع الكتابي والإنجاز العملي..

هدفه أن يغيّر شيئاً في مجتمعه، وأن تكون له بصمة في هذا العالم.